سلسلة كتاب الناقد

حَرْبُ الخليج

اختراق الجسد العربيّ

أنطون مقدسي

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

الغلاف لوحة للفنان محمود حمّاد

حَرْبُ الخليجْ

إفتراق الجسد العربي

THE GULF WAR

The Penatration of The Arab Body

BY

ANTONE MAKDISI

First Published in the United Kingdom in 1992

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1855131536

الطبعة الأولى: تموز / يوليو ١٩٩٢

المحتويات

باكورة النظام العالمي الجديد...

«لن تحاول الأرض أن تنشق فتبتلعني فلأحاول ان انشق لابتلع الأرض، انا الآن»[1].

لقد شكلت حرب الخليج اختراقاً للجسد العربي على درجة من القوة والعمق والسرعة بحيث أنّا، رغم كل ما قلنا وكتبنا وأعلنّا... ثرثرنا وولولنا... لم ندرك مفعولها البعيد ولا القريب؛ شأنها شأن طعنة يسددها لاعب ماهر بخنجره المسنون إلى صدر خصمه؛ فلا يشعر هذا بالألم إلّا بعد أن يبرد الجرح. وسوف يمضي زمن طويل قبل أن (يبرد) جرح الخليج. وعندها ندرك كلنا، سواء فينا الذين خسروا أو الذين تخدرهم نشوة ربح مزعوم، أن الخاسر الأكبر هو الأمة؛ فكل أذى يقع على أعضاء جسد واحد، ينتقل بشكل أو بآخر الى الأعضاء الأُخَر. كان قد بقي لنا، قبل أزمة الخليج، رغم التشرذم والحروب الأهلية، بعض من تماسك؛ فماذا بقي منه اليوم؟ الاسم. اسم بلا مسمًّى. إن النصر الدونكيشوتي الذي حققته (الدول المتحدة الأميركية) وتوابعها (دول الغرب بالدرجة الأولى) ألحقَنا نحن العرب أيضاً بها: فهذا يطلب حمايتها، وذاك يستجدي نقودها، وثالث يطلب رضاها... ورابع يرجو أن ترفع عنه غضبها. فليس صحيحاً أن أزمة الخليج حركت تاريخاً كان موقوفاً[2]. لكنّ الأصح هو أن (الدول المتحدة الأميركية)

---

(١) سميح القاسم، «نحن الآن وثيقة تاريخية»، مجلة الناقد، العدد ٣٠، كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠، ص ٤ ـ ٥.

(٢) محمد برادة، «رفع الحصار عن التاريخ العربي»، مجلة الناقد، العدد ٣٣، آذار/مارس ١٩٩١، ص ١٦ ـ ١٨. وقد كُتب هذا النص قبل أن تقع حرب الخليج على ما يبدو، ثم بعدها راجع الكاتب موقفه، راجع: «روبنسون الأميركي في الجزيرة =

حسمت بنصرها ولصالحها، صراعاً بيننا وبين الغرب بدأ مع حملة نابوليون بونابرت على مصر (١٧٩٧ ـ ١٨٠١). وكان ما يزال على ما هو عليه حتى بداية الحرب؛ تتبدل معطياته ونتائجه بتبدّل مراكز القوى الدولية وتوازنها، ورهانه واحد، هو رهان كل استعمار: السيطرة على ثروات المنطقة المستعمَرة، البشرية منها والطبيعية وتنظيفها لحساب المستعمِر.

كانت أزمة الخليج، في شكلها الأول، تمهيداً للحرب؛ والحرب تمهيداً للسلم (العربي ـ الاسرائيلي طبعاً) والسلم تمهيداً لاقرار النظام العالمي الجديد، في هذه المنطقة من العالم، الذي هو نظام الهيمنة الأميركية على العالم. ولهذا بدا واضحاً منذ بداية الأزمة، أن النتائج ستتجاوز الأسباب، فالذريعة الأولى كانت تحرير الكويت والدفاع عن الشرعية الدولية وعن الديموقراطية (ومعروف أن دولة الكويت ديموقراطية جداً!). ولكن عندما بدأت تغطي أرض الخليج وبحرها وسماءها الجيوش الأحسن تدريباً (وقد بلغ عددها ما ينيف عن النصف مليون) والأساطيل الحربية الأحدث، والطائرات الأسرع، وكلها مزوّدة بالأسلحة المسفسطة، بدا واضحاً أن الهدف أبعد مدى بكثير من صراع محلي أو عربي. واليوم لم يعد احد ليشك بأن أهداف الحرب المُضمرة والمعلنة متعددة. قد يكون أهمها:

تدمير العراق أسلحةً وشعباً ونظاماً،

إنهاء حلم الأمة العربية الواحدة بإحداث شرخ فيها يمزقها في الصميم،

الاستيلاء المباشر على بترول الخليج،

خنق كل نية بالتمرد في العالم المتخلف على سلطة اميركا المتحدة، وإدخال المنطقة العربية برمتها في نظام للهيمنة، اطلقوا عليه تيمناً اسم (النظام العالمي الجديد). ولهذا عطّلت أميركا المتحدة كافة أنواع التسويات التي اقترحت من أجل حل سلمي[٣] أزّمت الموقف، جعلت من مجلس الأمن

= المتوحشة»، مجلة الناقد، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ١٨ ـ ٢٠.

(٣) عبدالرحمن منيف، «أي عالمَ سيكون؟ المثقفون العرب والنظام الدولي الجديد»، مجلة الناقد، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٤ ـ ٧.

واحداً من أجهزتها، وصوّرت الرئيس العراقي على أنه هولاكو نهاية هذا القرن، بعد العدة التي تمكّنه من أن يقضي على الديموقراطية والحضارة!... وبعد أن كان ما كان، يحق لنا أن نتساءل ما إذا كان هولاكو هذا عربياً أم أميركياً.

ويبدو أن الرئيس العراقي صدق الأسطورة وصار يقدّم ذاته على أنه الحصن الذي لا يقهر للعروبة والاسلام. وها هو العراق يجد ذاته، بين عشية وضحاها، وقد دُمِّر جيشاً وجماعة وبنى حضارية ـ اقتصادية. ودُمِّر معه الوجود القومي العربي. والأكثر إيلاماً على النفس، هو أن الوجودات القطرية الهشّة، ينادي كل منها: الآخر هو المسؤول. أنا بريء من دم هذا الصدّيق. في الأساطير الشعبية أن الناس يفقدون يوم الدين كل تماسك بينهم. فلا الأم تتعرف الى ابنها، ولا الابن الى أبيه، وكل يقول نفسي، نفسي. أما في جهنم، فتقول الأسطورة، إن النفس تلعن الجسد والجسد يلعن النفس. والمرجع الأخير، الحَكَم الذي لا يردّ حكمه في هذه الشؤون هو (الدول المتحدة الأميركية) التي توزّع على اليمين وعلى اليسار شهادات حسن سلوك؛ وما نزال حتى الآنَ في بداية النظام الجديد. وقد بدأت الحلقة الثالثة من حلقات المسلسل الذي هو مؤتمر السلام. وفيه أيضاً حلقات.

وتشدد (الدول المتحدة الأميركية) في مؤتمر السلام على حضورها الفعال في كل حلقة، أساسية كانت أم فرعية. فهي تعيّن للمؤتمرين مكان لقاءاتهم، والمشكلات التي سيتداولون بشأنها، وتفسر قرارات هيئة الأمم. وإذا لم يتفقوا، عادوا اليها... ولم لا تفرض الحل كما فرضت كل ما سبقه؟

إن مما يسترعي الانتباه حقاً، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى أيامنا فإلى ما شاء الله، هو تناقص أثر الراي العام في العمل السياسي، بخاصة في البلدان المتخلفة حيث الاعلام الأجنبي والمحلي ـ الأجنبي أكثر من المحلي ـ هو الذي يوحي الى الشعب بالموقف الذي عليه أن يتخذه من قضية ما. وكان من فضائل الكارثة ـ إذا جاز لنا الكلام على فضيلة ما لها ـ انها كشفت عن جوانب هامّة من حقيقة الشعب العربي، في حين أن القيادات ظنت أنها خدّرته، حيَّدته وجعلته طوع إرادتها. وسوف آتي على

ذكر بعض من جوانب هذه الحقيقة. الذي يعنيني الآن هو أن الشعب العربي تجاوز في كل أقطاره، منذ بعيد، بداية الأزمة، الأيديولوجيات، الشعارات... وأوامر القيادات ونواهيها، ليعبّر بشكل واضح وصريح عما يريد وعما لا يريد: إنه شعب عربي واحد، لا يرضى بديلاً عن الاستقلال والحرية. فهو يرفض كل تسوية مع الأجنبي أو بين الأقطار. ولقد استخدم يومها في الإفصاح عن إرادته أنواع التعبير المُتاحة كلها: تظاهر حيث أمكن التظاهر، هتف حيث سمحوا له بالهتاف، رقص، غنّى... وعندما وجد ذاته مغلوباً على امره، اخترع اساطيره، خرافاته، غذّى أوهامه كي لا ينهار أو كي يتمكن من مزاولة أعماله. وها هو اليوم كعادته، يمارس الحرفة، يزرع الأرض، يبادل، يتاجر... وعندما شرّدوه، عذّبوه، اهانوه، قتلوه... سكت مسلّماً أمره لمن بيده الأمر. يخطىء من يعتقد أن الشعب العربي كان مع النظام العراقي بوصفه كذلك. إنه، منذ أيام المماليك والعثمانيين وغيرهم، يرى في كل نظام حكومي عدواً له. ولكنه في انتظاره الممتد على قرون، فتح عينيه حيث ظن أن ثمة بريق أمل.

أجل. إن الشعب العربي المغلوب على أمره لم يساوم.

الحاكم ساوم. ولمَ لا؟ فعندما تقع الصاعقة على قوم يتفرقون، كل منهم حفاظاً على حياته. وتهدأ العاصفة، فيستعيد كل منهم أنفاسه ويطالب بحقه من الغنائم ـ إذا سمحتم ـ والخسائر، الى جهنم!... كان عليه أن يعرف حدوده فلا يمدّ ساقيه أبعد من بساطه!

وحده المثقف بقي له بعض من حرية الاختيار. إنه يرى، يعرف، يحلل، يقارن... ويستطيع أن يقيم بينه وبين الأحداث المتلاحقة مسافة تمكنه من التعبير المنطقي عما يعتقد انه الحقيقة. ولكن ما لنا وللحقيقة. الله وحده يعرفها. في أوقات الخطر عليك بحساب الربح والخسارة. في الساعات العصيبة، السير في ركاب الحاكم هو أسلم الطرق. وبديهي أن الربح أفضل من الخسارة. وها هي الأكثرية الساحقة من المثقفين تتبارى في التعبير عن اخلاصها لمن بيده الحل والربط.

فئة المتربصين كانت قلة قليلة.

واقل منها فئة عصمها ربك، فكان لها من الجراة ما مكّنها أن تقف بجانب الشعب وتقول حقيقته.

هل حقـاً أن خلفية موقف الفئة الأولى قطرية؟ وأن السلطة ـ القطرية طبعـاً ـ هي خلفية الرأي العام؟ هل حقاً أن الخلاف بين الفئة الأولى والثالثة هو على ما إذا كان العمل القومي يجب أن يكون اليوم قطرياً أم قوميـاً[٤]؟ لا هذا ولا ذاك. فلنقـل بدون مواربـة وببساطة إن المواقف القطرية انتهازية وحسب. فنحن العرب نعرف كلنا ـ وفي أدنى الحدود أكثريتنا الساحقة ـ وأياً كان موقع أحدنا الاجتماعي، أنّا نعيش ونتقدم كلّاً، أو نتقهقر كلّاً، كما هي عليه الحال اليوم.

ان الفئة الثالثة هي التي يمكن أن تشكل النواة الصلبة لعمل وحدوي منتج. فانتقال الوجود القومي من شكله المضمر في الوجدان الشعبي، الى الشعور الجمعي حيث أخذ شكلاً محدد المعالم ـ قل إن صياغة مفهوم الأمـة ـ كانت من عمـل مثقفـين، بداياتهم في النصف الثاني من القرن التـاسـع عشر (ابـراهيم اليـازجي وبطرس البستاني) مروراً بنجيب العازوري الى ساطع الحصري وزكي الأرسوزي وغيرهم وغيرهم؛ فإذا كان مفهـوم الأمـة العربية الواحدة قد سقط، إذا كان لم يبق منه، هو والمفاهيم التي واكبته، ومنها مفاهيم التقدم والاشتراكية، الديموقراطية وسلطة الشعب وغيرها، سوى أشكال فارغة، أحدثت فيها حرب الخليج شرخـاً قاتـلاً، فلأن المرحلة التاريخية التي تهيمن عليها اليوم الثورة العلمية ـ التقنية، قد تجاوزت، مع المفاهيم المذكورة وغيرها ـ إرث القرن التـاسـع عشر في العديد من جوانبه. أفلا يمكن لمثقفين أُخَر أن يعيدوا النـظر في الجهـاز الفكري الذي عشنا عليه منذ بُعيد الحرب العالمية الثانية الى أيامنا، وقد تقوقع اليوم وصار هيكلاً عظمياً يعيق تقدمنا؟

ولمَ لا؟

وبقـول عام، فإن نهضتنـا الأولى كانت ثقافية. وأقصد بمفهوم الثقافة معنـاه الأعم والأصـح، ألا وهـو تكـوين الانسـان. فنحن اليوم أبناء مجمـوعـة من المفكـرين والأدبـاء، بدأت مع الطهـطاوي وعلي مبارك،

(٤) راجع مجلة الوحدة، السنة السابعة، العدد ٧٧ ـ ٧٨، شباط/فبراير ١٩٩١. «أزمة الخليـج ـ أبعـادها ومضاعفاتها»، على الخصوص مقالة عبدالإله بلقزيز، «المثقف العربي وأزمة الخليج»، ومقالة كمال عبداللطيف، «على هامش قراءة المثقفين العرب لأزمة الخليج».

واستمرت مع محمد عبده وجرجي زيدان.. وآلت الى شكيب أرسلان وطه حسين حيث توقفت. فنحن اليوم بحاجة الى نهضة ثانية، أي الى تكوين انسان بوسعه استعادة ماضينا القريب من منطلق القرن الواحد والعشرين الذي نغزّ السير نحوه.

تتبدل اليوم ومنذ أواسط هذا القرن معطيات الثقافة واتجاهاتها، بنى المجتمع ومعاييره، رؤية الانسان لذاته ولعالمه، بحيث يبدو أحياناً للمثقفين في العالم المتقدم، وكأن إرث القرن التاسع عشر صار من الماضي البعيد. بالمقابل فإن النكبات التي توالت علينا، نحن العرب، في نصف القرن الفائت وقبله ـ وأقساها أم النكبات التي هي التجزئة والحروب الأهلية ـ قد أفقدتنا الكثير من قوتنا على الابداع، إبداع ذاتنا وعالمنا. فحاضرنا قلق غير مستقر؛ ونحن نتأرجح باستمرار بين الماضي والمستقبل؛ نتقدم خطوة ونخاف فنرتد إلى الوراء. وحده يستطيع انقاذنا، وانقاذ تراثنا، الانتقال الذي أشرت اليه، أقصد الانتقال الى عالم الغد.

ولكنه ليس بالأمر السهل.

إذ إن في شخصيتنا، الفردية والجماعية، ترسبات من عصر الانحسار وقبله، تبدو في سهولة استسلامنا للعقل الأسطوري واحياناً للعقل السحري. ثمة ترسبات أخرى هي من بقايا البداوة؛ أبرز تجلياتها العشائرية وما يلزم عنها من زعامات فردية واقليمية، وعلائق شخصية؛ في حين أن المرحلة التاريخية التي صرنا اليها، تقوم على العقل الرياضي وما يلزم عنه وله من تنظيم دقيق لحركة وتحركات الانسان، بلغ اتقانها حداً صار يحرم معه الانسان متعة الشعر.

ولكن هذا الانتقال ليس ممتنعاً.

فما امكاناته؟ مشكلاته وإشكالاته؟ عوائقه؟

ما العالم الذي يتكوّن اليوم ويكوّننا معه؟ ما موقعنا منه؟...

الانتقال هذا ثقافي. فما مسؤولية المثقف العربي عنه؟ هل بوسعه أن يمارسها؟ ولماذا لم يمارسها؟...

ليس غرضي الاجابة على هذه الأسئلة. ولو شئت لما استطعت. إنها من شأن عمل فكري ميداني جماعي، يستخدم وسائل للبحث والتعبير كلها،

تمتد على سنوات وربما على أجيال إن كلًا من هذه الأسئلة يستثير من المشكلات، ما يطرح أسئلة أخرى غير محدودة العدد. غرضي هو التمهيد لعمل ثقافي ممكن، وحده إذا استمر، بوسعه انتشالنا من الورطة التي انزلقنا اليها.

ولكنه قبل الشروع في البحث، عليّ أن أعود مرة أخرى الى جذور الشرخ الذي هو التعبير الصارخ عن بؤسنا، والذي تنطلق منه مقالات وتأملات المثقفين العرب على اختلاف مذاهبهم، أقصد حرب الخليج.

ما هي؟ حرب كليّة.

مَن المسؤول عنها؟ أنا.

ما المرئي من نتائجها حتى الآن؟

إن حرب الخليج (وطبعاً الأزمة التي مهدت لها، ومؤتمر السلام الذي سينهيها، إن صدقوا، ولن يصدقوا) هي واحدة من نكباتنا الثلاث الكبرى في التاريخ المعاصر، جذورها كلها في النكبة ـ الأم التي هي الدولة القطرية، كما قلت للتو: نكبة ١٩٤٨ ـ نكبة ١٩٦٧ ـ وأدهاها نكبة ١٩٩١ لأنها جعلت من التجزئة، في نظرهم، واقعنا الأبدي.

١

... الحرب الكلية

كل حرب هي كلية من حيث المبدأ، إذ الغرض منها هو تدمير الخصم في أبعاد وجوده الأساسية، العسكرية منها والاقتصادية، السياسية والعمرانية والثقافية وغيرها. إلا أن الحرب لم تصبح حقاً كلية إلا بعد أن حققت الحضارة التكنولوجية المبرمجة ما حققت من انجازات تدميرية هائلة، أكثرها فتكاً الإعلام.

ليست الحرب الكلية القنابل النووية والهيدروجينية. فهذه إذا انفجرت لا سمح الله، تحولت المنطقة التي تنفجر فيها الى صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع.

ما الحرب الكلية إذاً؟

أتعرفون قصة السفكس التي ترويها كتب علم النفس الكلاسيكية؟ تقول هذه الكتب عن حشرة السفكس إنها تؤثر زرع بيوضها على جسد حي عاجز عن الحركة، بحيث تتغذى البيوض على مهل باللحم الطازج. وهي تعمد لتحقيق هذا الغرض الى حشرة أخرى أضعف منها تمعن وخزاً في عقدها ومفاصلها العصبية، وما تزال حتى تشل فيها كل قدرة على التحرك.

وتلك هي الخطة التي اعتمدت بنجاح باهر لأول مرة، في حرب

الخليج. فقد نسفوا في العراق الجسور الرئيسة، هدموا البيوت على رؤوس أصحابها، ضربوا معامل تكرير المياه، وأيضاً معامل إعداد الحليب المعقم للأطفال، عطلوا مولدات الكهرباء الكبرى، نسفوا الطائرات والأسلحة الرئيسة في مخابئها... صبوا حمم مدافعهم على رؤوس مقاتلي الجبهة، طوال شهر ليلاً نهاراً، بحيث شلّوا في الجندي إرادة الحياة نفسها. أضف الاعلام الذي ضاعف مراراً نشراتــه وتعليقــاتــه وأوقات بثها، لينشر في العالم جواً من الرعب والحقد، صار معه الرأي العام قانعاً بعدالة القضية التي تحارب من أجلها الدول المتحدة الأميركية وحلفاؤها. وبهذا جعلوا الوسائل اللاإنسانية التي استخدمت، مشروعة. كان الإعلام ديموقراطياً، فقد أفسح المجال للآراء المتباينة كي تعبّر عن ذاتها بحرية كاملة. إلا أنه أغرق الكل في مناخ من الكراهية حيث ينتج المفعول الذي يريدونه. هنا أيضاً تجاوزت النتائج الأسباب، وعندما لم يبق بين العسكريين ـ ولا المدنيين طبعاً ـ من يرغب في القتال، توجهوا نحو بغداد. ورأى السفكس الأميركي أنه حقق غرضه فكبّر وهلّل.

هل انتهت الحرب؟

كلا.

فالشعب العربي لم يستسلم، والأجنبي يعرف بالتجربة الممتدة على سنوات، أن في كيان العربي بقية باقية من عنجهية أمراء الصحراء ترفض الخنوع، أية كانت النكبات، وأياً كان البؤس الذي هو عليه. إنما الحرب أخذت مجرى آخر له مساران:

الأول: عدواني. فالشعب الذي عبّر عن موقفه الوحدوي التحرري قبل الحرب وأثناءها. رفض الاستسلام بعدها. هذا الشعب يجب أن يعاقب ويؤدّب. ويختار هنا المعتدي من شعبنا الحلقة الأضعف التي كان قد أفقدها وسائل دفاعها من الأصل. وكلّف فريقاً منا بهذه المهمة الدنسة ـ مسألة داخلية قلنا ـ ووقف الفرقاء العرب

الأخر موقف الحياد، شأنهم شأن جحا (طالما أن المسألة ليست في ذقني فهي لا تعنيني) ولم تسلم الحلقات الأقل ضعفاً من عملية التأديب هذه. والمقصود بالتأديب هو الإهانة، التهجير، التشريد، التجويع... والقتل.

المسار الثاني: سلمي خالص. لقد استهدفت حرب الخليج التدميرية الشعب العربي عبر العراق، والشعوب المتخلّفة عبر الشعب العربي. وهي من هذا القبيل، حرب عرض عضلات. الحرب الحقيقية التي تشنّ علينا، نحن العرب، بدأت مع مؤتمر السلام. إنها أخطر حرب واجهناها منذ خمسة عشر قرناً ونيف. إذ القصد منها تفتيت الشعب العربي بشكل منهجي، كي يتحول الى قطع صغيرة، يختارون منها القطع الأضعف، ويحيّدون القطع الأخرى بالرشوة أو بالتهديد، كي يتمكنوا من وضع القطع المختارة على المشرحة لابادتها. الظاهرالمسألة سلمية تماماً. أفيوجد علاقة أكثر سلمية من المفاوضات؟ ولكن قولوا لي على أي شيء نفاوض؟ على أرض؟ أرض من؟ أرضك أرضي أرض أجدادنا وأولادنا: فالسؤال المطروح علينا في المفاوضات شائن، مهين. وهو: ما المساحة من أرضكم التي تقبلون بالتنازل عنها؟ الجواب الطبيعي والمنطقي هو ولا سنتيمتر. ومع ذلك سنفاوض لننقذ ما يمكن انقاذه.

قولوا لي بربكم: أليس هذا موقفنا منذ عام ١٩١٨، عندما بدأوا في مؤتمرات السلام بتحقيق اتفاقية سايكس ـ بيكو على أرض الواقع؟ يومها قبلنا باتفاقية لم نكن طرفاً فيها. وتتوالى تعديلات الاتفاقية ـ عينها ـ ونقبل كل مرة بالتعديل المطروح لننقذ ما يمكن انقاذه.

قالوا يومها: خذ وطالب. الواقع أنّا أعطينا من لحمنا ودمنا، ولم نأخذ سوى وعود كانوا ينقضونها قبل التوقيع عليها. كانت لعبة الأجنبي وما تزال مكشوفة، وكنا مع ذلك نتصرف كل مرة وكأننا لا نراها. وما تزال الأمور اليوم على ما كانت عليه في السابق. فقد أعلن

تشرشل: حيث نكتشف بئراً بترولياً سأنشىء دولة. ونسمع ونسكت. وعندما يكتشف خلفاؤه الآبار وينشئون الدول نقول: زادت أصواتنا في هيئة الأمم المتحدة.

ويعلن بريجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر: سنلعب بعد الآن لعبة الطائفية. فلا نعلق، لا نتخذ من إعلانه أي موقف. وربما لعب بعضنا معه هذه الورقة. وها هي اليوم الطائفية تنخر الجسد العربي المتعب. تزيده كل يوم ضعفاً عن اليوم السابق. من كان يفكر في العشرينات من هذا القرن أن السوريين سيقبلون بكل دويلة يقتطعها الاستعمار من جسد سوريا الطبيعية، وعلى حساب الأمة العربية الواحدة التي كانت فكرتها ما تزال يومها حية فعالة؟! وتصبح بعدها هذه الدويلات غاية بذاتها. وهكذا كنا ـ وما نزال ـ نتراجع خطوة إلى الوراء. ونبني لأنفسنا مواقع دفاعية بانتظار التراجع الذي سيلي.

على فلسطين ساومنا ونساوم اليوم وسنساوم الى ما شاء الله.

ويتزايد بسرعة عدد سكان الوطن العربي فتفتح أبوابنا للمجتمع الاستهلاكي، نكدس الأسلحة فتتعقد مشكلاتنا فنصير بحاجة متزايدة الى رؤوس الأموال... ونساوم العدو على مساعداته وقروضه. وذلكم هو الحوار مع الشيطان، الانسان فيه دوماً مغلوب، كما جاء في كتابات المتصوفة.

في رحلة التفتيت هذه، أزيحت الـ(نحن) القومية بعد فترات متعاقبة من الصعود والهبوط لحساب الـ (نحن) القطرية، وصار من الممكن لواحد من أركان مجلس التعاون الخليجي أن يعلن: أثبتت حرب الخليج أن الأمة العربية أسطورة.

ـ بلى، يا سيدي، هذا ثابت قبل حرب الخليج وبعدها!. ولكن لا حيلة لي في الأمر. فأنا من شعب يؤمن بالأساطير مع ساطع الحصري،

وزكي الأرسوزي، وقسطنطين زريق، وغيرهم وغيرهم[1]. والأسطورة هنا، كما في لسان أفلاطون والاغريق القدامى، تقول وجودي، وجودك، وجودنا كلنا، لا وجود لنا سواه، شعباً واحداً، أمة واحدة، صارت في الخمسينات من هذا القرن قوة يحسب لها حساب بين القوى العالمية. يومها، وقفت في وجه عملية التفتيت وجعلتها تنحسر. فما، أو من، أفقد الأمة قدرتها الاجرائية في السنوات العشر الأخيرة بوجه خاص؟ أنا، أنت، كلنا، كل بنسبة موقعه من مركز القرار السياسي، إذ استبدلنا عن قصد أم عن غير قصد، موقعنا القومي بموقع قطري. لقد فقدت الأمة العربية منذ قرون وحدتها السياسية أولاً، ومن ثم وحدتها الاقتصادية. إلا أنها احتفظت بوحدتها الثقافية - الشعبية طوال قرون الانحسار وقبلها وبعدها. وكانت هذه الوحدة فعالة. الذي حدث في السنوات الأخيرة - وقبلها - هو أن السياسة الدولية والاقليمية، عزلت الشعب العربي، حيّدته وزوّرت إرادة الأمة... فأجبرتها بذلك على العودة الى حيث كانت قبل النهضة. أقصد إلى وجدان الشعب وبقيت مع ذلك ذكراها، ذكرى الخمسينات في خيالنا وعقولنا، نحن أبناء تلك المرحلة. وهذه الذكرى هي التي عادت بكل قوتها مع بداية أزمة الخليج وأثناء حربها.

ويحدث كل مرة نكتب، أن نشير بـ (نا) الجماعة، تارة إلى الأمة وطوراً الى القطر، غير آبهين بالتناقض الذي يسميه الفلاسفة - خطيئة ضد المنطق - فقد لاحظت، طوال الأزمة، أن بعض المثقفين ينطلق كل منهم من موقع قطري، ليطالب مع ذلك الدول الغنية - أي البترولية - بتوزيع دخلها كله أو بعضه، على الدول العربية الفقيرة. ولا أدري باسم من يطالبون. ألم نكن قد هلّلنا لقيام هذه الدول واكتمال سيادة كل منها على أرضها وثروات أرضها التي صارت ملكها - لا ملك الأمة العربية - تتصرف بها كيفما شاءت!

ويقع الأدهى عندما يتحدث زعيم سياسي قطري فيستخدم (نا) الجماعة أو (نحن)، لكأنه القيّم على شؤون الأمة كلها. ويردّ خصمه عليه مستخدماً طريقة التعبير عينها. بهذا الشكل نصفي حساباتنا الخاصة على حساب أمة كنا قد صفيناها من قبل. في هذا الالتباس المصمم يصيب أركان السياسة العربية ما أصاب (جحا) عندما ضايقه الأولاد فقال لهم: تعالوا معي الى بيت الملك حيث أُعدّت لنا وليمة فاخرة احتفالاً بزواج ولي العهد. فيركضون ويكررون فرحتهم بالوليمة. ويصدق (جحا) كلامه ليسأل الأولاد: أما تزال المسافة طويلة بيننا وبين قصر الملك؟...

قالوا عندما وقعت الواقعة: عاد الاستعمار(١)

قلنا: أو توارى يوماً الاستعمار كي يعود اليوم؟ فعندما شرّف ديارنا استولى عليها وصحّ فيه قول الشاعر العربي:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا   نحن الضيوف وأنت رب المنزل

الاستعمار، يا سيدي، هو الاستعمار يلبس لكل حالة لبوسها، فهو قديم جديد، جديد قديم. إلا أنه يظن أنّا نسيناه، فيشدّد على حضوره كي يذكّرنا به. وآخر زي اصطفاه لذاته ـ أدهى الأزياء وأشرسها ـ هو (النظام العالمي الجديد) الذي هو أعلى من الامبريالية، إذا سمح الرفيق لينين. شكله هرمي تراتبي. إنه نظام من التبعيات المتبادلة، يمدّ نسبية أينشتاين الى العالم الانساني. فالاستقلال نسبي، الحرية نسبية، وكذلك حقوق الانسان، وأيضاً الحق في الثقافة والطعام... وأيضاً وأيضاً الحق في حدود آمنة وحق السيادة على الأرض... وخلفية كل ذلك الطبع الأميركي، حيث

(١) د. غانم هنا، «عودة الاستعمار»، مجلة **الوحدة**، العدد ٧٧ ـ ٧٨، شباط/فبراير ١٩٩١. وأيضاً رياض نجيب الريّس، «الخليج العربي: عودة الاستعمار»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ٦ ـ ٩. حيث اعيد نشره بعد أن كان قد نشر في ٢٨ تموز/يوليو عام ١٩٧٩ في مجلة **المستقبل** الصادرة في باريس.

«الخط المستقيم هو أقرب الطرق بين نقطتين». وتفسيره: إذا كنا بحاجة الى بترول العرب فلنستولِ عليه. وعلى الحقوقيين أن يجدوا المبررات القانونية. ثم نكلّف لجنة من الساسة المتخصصين للاخراج والديكور. والباقي من شأن وزارتي الدفاع والإعلام.

وإذا كانت الأمور على هذا الشكل، فبأي حق يتكلمونِ عن «جريمة الغرب المزدوجة»[٢]؟ هل حقاً كان سلوك الغرب في حرب الخليج غير معقول؟ هل كان في هذه الحرب اعتداء على مبادىء أقرّها الغرب ولم يتقيّد بها، ومنها مبدأ تنظيم الجماعات في دول قومية أو مبدأ حقوق الانسان وحق كل دولة بالاستقلال وحق كل مواطن بالحرية والمساواة والأمن؟... لا أظن. المسألة فيها نظر. لنلاحظ قبل كل كلام من جهة، أن المبادىء العقلية والتنظيمية التي سلّمت بصحتها البشرية، تستند بالأصل الى معايير مضمرة أو صريحة، منها تستمد مبرر استخدامها. ونلاحظ من وجه آخر، أن أكبر نصر حققته البورجوازية منذ القرن الفائت، هو أنها أخضعت القيم الأخلاقية والانسانية والدينية التي عاشت عليها البشرية طوال قرون، لقيمة واحدة هي عندها معيار المعايير، أقصد (المصلحة)، وفرضت هذا المعيار على العالم كله، هو والعديد من طرقها في فهم الشؤون الانسانية وفي معالجتها. ومصلحة الغرب اليوم (والدول المتحدة الأميركية قبل الغرب) هي رفاه مواطنيهم. ولما كان البترول العربي من مستلزمات رفاههم، فالاستيلاء عليه بالقوة مشروع، مشروع جداً ومعقول جداً[٣]، وسينزلون أقصى العقوبة، وقد أنزلوها وسينزلونها بالذي تمتد يده الى نقطة واحدة من هذا البترول. وستكون عقوبتهم مشروعة جداً، يضمن مشروعيتها

---

(٢) جورج طرابيشي، مجلة **الناقد**، العدد ٣٣، آذار/مارس ١٩٩١، ص ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) راجع مقال رياض نجيب الريّس المذكور سابقاً، حيث يشرح ديبلوماسي غربي خطة الغرب التي وُضعت خطوطها الكبرى عام ١٩٧٩.

مجلس الأمن الذي جعلوه لهذا الغرض.

قالوا: ومن هم أهل الحل والربط في مجلس الأمن؟

قلنا: أعمدة الغرب الثلاثة بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، فكل تمرد على إرادتهم تمرد على الشرعية الدولية.

قالوا: والدولة العبرية؟

قلنا: هي الدولة الواحدة والخمسون من الدول المتحدة الأميركية. فالمعايير ليست مزدوجة، كما ادّعينا يوماً ثم أسقطنا دعوانا لا أدري لماذا.

يتساءل عبدالله ساعف(٤) ونتساءل كلنا، نحن الذين نستمع الى الإذاعات الأجنبية، عن السبب الذي يجعل أميركا المتحدة تشدد على انتصارها العظيم في حرب الخليج، اليوم كما من سنة وربما لسنة أخرى أو أكثر؟ ألا تكفيها الاحتفالات العديدة والمنوّعة التي دشّنت بها هذا النصر المؤزر في ديارها وفي ديارنا حيث مكّنوها من ذلك؟

الغرض، يا سيدي، هو نقل الهزيمة من لاشعور الشعب الأميركي (هزيمة الفيتنام) الى لاشعور الشعب العربي كي نسلم بسيادته علينا الى ما شاء الله، ونسلّم أيضاً بالدول القطرية التي تستميت في الحفاظ عليها وفي تفتيتها.

قلنا الشعب العربي لن يسلم.

ولكن ما موقف السياسي؟ إنه يتصرف اليوم تصرف المهزوم. وغداً؟ وبعده؟

وما موقف المثقف الذي عليه أن يهيّأ لنهضة ثانية تنقل يوماً ثقافتنا

(٤) مجلة **الوحدة**، العدد المذكور بعنوان «بين الرهان على الانتصار والهزيمة».

ـ وتنقلنا معها ـ الى الموقع الذي يحق للشعب العربي أن يحتله بين الأمم المتقدمة، وعندها نكون قد تجاوزنا، مرة ولكل مرة، عصور الانحطاط وعصور الهزائم؟

٢

أنا لا أكتب لهذا الجيل...

أصحيح كما يقول رياض نجيب الريّس[1]، إن أكبر خسارة منينا بها بعد ضياع الأندلس هي حرب الخليج؟ ولكن عندما تركنا الأندلس عدنا الى القواعد التي انطلقنا منها وخلفنا بعدنا حضارة متكاملة صارت النواة الأولى التي انبثقت منها الحضارة الحديثة. أمّا اليوم فهم يحتلون ديارنا يتلاعبون بتاريخنا، ينهبون ثرواتنا، يدوسون مقدساتنا... وكل ما أشادته نهضتنا يهدمونه ويسخرون منه...

وبعضهم يصفق،
البعض الآخر يعتذر عن تقصيره،
غيرهم يطلبون حمايتهم،
وغيرهم وغيرهم يحتكمون اليهم في شؤوننا الداخلية.

وكلنا نطلب اليهم إعادة حقوقنا المغتصبة، بعضها على الأقل. وأملنا الكبير اليوم معلّق بمؤتمر السلام، الذي لا ندري أهو للسلام أم للاستسلام. فالحلقة الأولى من هذا المؤتمر التي كان إخراجها بارعاً الى حد جعل مذيع اذاعة «اسرائيل» يقترح جائزة الأوسكار

(١) مجلة **الناقد**، «الخليج العربي: عودة الاستعمار»، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ٦ ـ ٩.

لمخرجها جيمس بيكر وزير خارجية الدول المتحدة الأميركية. كما تدل هذه الحلقة على أن المسلسل سيكون طويلاً، حافلاً بالمفاجآت ولا يبشر بأقلّ خير.

قيل إن الحرب التي يشنونها علينا منذ زمن طويل، هي حرب إبادة؟ أبداً إنها حرب السفكس الأميركي كما قلت للتو، تحتفظ بالمهزوم لتستغله كما تشاء. وعلام هزمنا في هذه المعركة وفي المعارك الأخرى؟ لأننا نواجههم فرقاً متصارعة على البقاء.

بادرني بالكلام المرحوم أبو سلمى قبيل رحيله بحوالي سنة، وقال والدموع في عينيه: عندما غادرنا ديارنا، كان هدفنا تحرير أرضنا وإقامة دولة جديدة عربية عليها. أما اليوم فقد صرنا نقنع ببضع كيلومترات من أرض كلها لنا، نقيم عليها دويلة ما إن شاء الله.

قلت: يا ليت أن زكي الأرسوزي وساطع الحصري وغيرهما ممن بشرونا بالأمة الواحدة، يسمعون التصريحات التي تصدر عن زعمائنا وتأكيداتهم الفارغة من كل محتوى. عندما توفي زكي الأرسوزي ١٩٦٨، كتبت كلمة في صحيفة البعث الدمشقية عنوانها: **صوت صارخ في الصحراء**.

لما يمض بعد على وفاة زكي ربع قرن، وها هو الكلام يتكشف عن حقيقته. كان زكي يتحسس ما تتمخض عنه الأحداث. فبعد نكسة حزيران (١٩٦٧) حدثني بكلام يدل على أنه كان يتوقع مثل هذا المآل، ومع ذلك لم يغير حرفاً واحداً من فلسفته ومن سلوكه. فالأمة التي صارعت الدهر قروناً لا بد وأن تبعث اليوم. وسيبعثها جيل تحرر من عقدة الأجنبي؛ كما كان فاجنر يعتقد أن إنساناً تحرر من الخوف هو الذي سينقذ البشرية[٢].

(٢) ثلاثية **ذهب الراين**، على الخصوص أوبرا **سيجفريد**، وأوبرا **غروب الآلهة**.

قلت: أذهب كلام زكي مع الريح؟ أتبدّد مع الجيل الذي رباه؟ أم أنــه يعبّــر عن حقيقة سوف تسمعها أجيال مقبلة؟ أأعيد عبارة نيتشه التي ذكرتها عندما ودعت الأرسوزي:

«أنا لا أكتب لهذا الجيل، يا بريق حكمتي افقأ عيونهم».

إن في كل كلمــة نطقت بها، يا معلم، إدانة لنا كلنا. والادانة كما الأزمــة والحــرب، محنة وامتحان. ولكن ألا تسمح لنا أن نشك؟ فالشك بعد أساسي من أبعاد الايمان، وقد يتكشف شكنا عن أمور لم تكن مطروحة في أيامك، قد تجدد مفهوم الأمة التي عشت ومتّ من أجلها، وتجعله من مستوى القرن الواحد والعشرين.

إن واحداً من الأسئلة الكثيرة التي تطرحها علينا حرب الخليج هو: لمَ أصــاب الفكــر القومي، ومعه الفكر الاشتراكي، وربما الفكر الديمــوقــراطي، ما أصــاب هذه المعاني العظيمة من وهن جعلها تستحيل شعارات فرغت من محتواها، تردد ببغائياً ويستخدمها الحــاكم لأغراضه الخاصة فلا تقنع أحداً. قد تستثير الجماهير عندما يحملها زعيم من مستوى جمال عبدالناصر. إلا أن استثارات الجمــاهــير كلها آنية، تسقط في الفراغ، ساعة ينفض الاجتماع ويذهب كل فرد الى عمله. من المسؤول عن هذا التردي الذي هو واحد من أسباب أزمة الخليج التي ضاعفت وستضاعف شعور المثقفــين وأولي الأمــر بأن زمن القومية والاشتراكية قد ولّى، وأن عليهم أن يحلموا بالخبز وبشيء من حرية الرأي؟ أهو هذه الفئة من السياسيين أم تلك الفئة من المثقفين؟ أهي الأيديولوجيات التقدمية والسلفيــة؟ أم المــؤسسات الحكومية والاجتماعية التي ضاعفنا أعــدادها وصرنا أسراها، كما دودة القز تصنع الشرنقة وتختنق فيهــا؟ كلنــا مســؤول عن انهيــار أهــدافنا الكبرى، عن تضخم مؤسســاتنــا وعــطالتها، وعن كل ما نعاني، كل واحد من موقعه وبنسبة قدرته على التأثير. المسؤول ليس السياسي بالدرجة الأولى،

إذا أردنا التخصيص. إنما الذي حوّل معاني الأمة والاشتراكية والحرية الى مفاهيم وجعل من هذه المفاهيم أيديولوجيا تستخدم لفهم الواقع وتطويره؛ ثم وقف عند هذا الحد، وكأنّ مهمته انتهت وراح يطلب أجر عمله، في حين كان الواقع يتطور ويتعقد بمعزل عن الأيديولوجيا، بحيث صارت هذه الأخيرة عالماً نظرياً قائماً بذاته لا علاقة له بالواقع الذي جُعلت من أجله. بلى إن المسؤول هو المثقف. فالحاكم وجد الأيديولوجيا جاهزة فتبناها، ربما عن قناعة وربما دون قناعة ما. الهامّ بالنسبة للحاكم هو أنه وجد في الأيديولوجيا المسوغ العقلي والأخلاقي لسلوكه، وما يجد من يردعه فيمضي في طريقه حتى نهايتها. فالسؤال الذي يفرض ذاته علينا هو: لمَ لمْ يتمكن المثقف من تجاوز الصياغات التقريرية التي لم تكن بالأصل في نظره إلا نقطة انطلاق لعمل طويل الأمد يقيم علاقة ديالكتيكية بين الواقع والنظرية؟ لمَ عجز المثقف عن استخدام مفاهيمه لتحليل واقع ما يزال ينتظر، وننتظر كلنا معرفته؟ فالمعرفة العلمية هي اليوم أكثر من أي يوم مضى، الطريق الى التقدم.

أيكون أنّا استعضنا عن العقل بالعواطف، وجعلنا من العواطف ستاراً نخفي وراءه انتهازية صارت متأصلة فينا؟

أيكون أن الأحزاب الأيديولوجية تعجلت النتائج فلم تتريث، أقله حتى تكوّن أطرها القيادية، هذه الأطر التي جُعلت بالأصل للدراسة لا للاسترخاء على مقاعد الحكم؟ الأدهى هو أن هذه الأحزاب ومثقفيها استعاضت عن الشعب والثورة الشعبية، عن الدراسة الجادة والمعرفة العلمية، بالانقلاب، ينقلها دفعة واحدة من صفوف الشعب إلى مراكز القيادة، حيث يحقق كل فرد ما تمليه عليه أهواؤه، ناسياً أو متناسياً الشعب الذي انبثق منه. وتتسارع الأحداث، تتعقد، تتبدل الأيديولوجيات، يختلط بعضها بالبعض الآخر، ومثقفنا ومعه السياسي في ذهول عن كل ما يجري من تبدلات

في مجتمع تحركه الثورة العلمية التقنية بانجازاتها. وعلامَ يتعبون عقولهم بكل هذه الأمور، طالما أن أهدافهم الخاصة قد تحققت؟

السكان في تزايد مستمر ومعهم الحاجات من كل الأنواع؛ المدينة تتضخم هي والمدارس بكل درجاتها، الصراع على الأفكار يحتدم. فالحاكم أعزل في وسط خضمّ من القوى يتحسس ضغطها. ولكن ليست لديه الأطر التقنية ولا دوائر البحث العلمي التي تمكنه من معرفتها. وقد يكون حديث العهد بالحكم لم يتمرس بعد بمستلزماته. والقوى هذه متحولات تتحول بذاتها وفي علائقها ببعضها. فمن جهة الأجنبي وضغطه المدروس. ومن جهة أخرى الشعب الذي أيقظته الحرب والأيديولوجيات المتصارعة؛ فهو يطالب بحقوقه يريدها في الآن. أضف الجيش والمثقفين، رجال الأعمال والحرفيين والفلاحين ... ولا يمكن للحاكم إلا أن يستجيب في أقصر زمن ممكن لكل مشكلة تطرحها قوى أفقدتها التحولات الاجتماعية ضوابطها. فما العمل؟ لقد سدت طرق التفاهم والحوار، ولم يبق أمام الحاكم سوى استخدام العنف بكل أشكاله، لإعادة ما يمكن إعادته من الاستقرار الى مجتمع في طريقه الى الانفراط. وها هو الحاكم يرتجل.. الاشتراكية كما يرتجل العنف، يرتجل الديموقراطية كما يرتجل البيروقراطية، يرتجل الثقافة والاعلام، السياسة العامة والسياسة المالية... وقد يجد ذاته مضطراً لارتجال الحرب والسلم... وكلها بالنتيجة سياسة تسويات مؤقتة. أما الحلول الجذرية، فلأجل غير مسمى. أما المشكلة القومية، فقد علّقناها، تناسيناها ونسيناها.

من المسؤول عن هذا التردي الذي هو واحد من أسباب أزمة الخليج، التي ضاعفت وستضاعف في المستقبل القريب شعور الناس بالإحباط؟ فزمن القومية والاشتراكية والحرية قد ولى الى غير رجعة. وما عليهم الآن إلا أن يحلموا بالخبز وبمستلزمات الحياة

الأساسية. قلت من هو المسؤول؟ أهو السياسي أم المثقف؟ رجل الأعمال أم الإداري؟ أم المؤسسات الحكومية والاجتماعية التي ارتجلناها وصرنا أسراها كما دودة القز تصنع الشرنقة وتختنق فيها؟ كلنا مسؤول عن انهيار أهدافنا الكبرى، عن عطالة مؤسساتنا وعن كل أمراضنا، كل من موقعه وبنسبة قدرته على التأثير.

المسؤول ليس السياسي بالدرجة الأولى، إذا أردنا التخصيص. وإنما الذي حوّل معاني الأمة الكبرى ـ الوحدة والحرية والاشتراكية ـ الى مفاهيم وجعل من هذه المفاهيم أيديولوجية، وجعل من الأيديولوجية شعارات عوضاً عن استخدامها لفهم الواقع وتطويره، أقصد: المثقف. فالحاكم يجد الأيديولوجية جاهزة فيتبناها، ربما عن قناعة، ولكن بالدرجة الأولى لأنها تعطيه بيسر مسوغات عقلية وأخلاقية لسلوكه أياً كان نوع هذا السلوك. ويجد الحاكم الطريق شاقة الى تحقيق الأيديولوجية، فيتبنى السلوك الذي يحلو له أن يسلكه، وهو يعلن بكل الأصوات أنه تقدمي وحدوي، شعبي اشتراكي لا يرضى عن الحرية بديلاً.

السؤال الذي يفرض ذاته علينا هنا هو لمَ لمْ يتمكن المثقف من تجاوز التأكيدات التي شكلت الصياغة الأولى لمفاهيم أيديولوجيته. إن وظيفة المفهوم الأساسية هي التحليل. فلمَ عجز المثقف عن استخدام مفاهيمه لتحليل واقع جُعلت من أجله، بحيث نفهم ويفهم الحاكم بما أمكن من الدقة هذا الواقع، ونتبين كلنا الطريق الى تطويره وجعله أحسن وأكبر مما هو عليه؟ ألأن الأحزاب الأيديولوجية (ذات البرامج محددة المعالم) تعجلت النتائج، فلم تتريث حتى تكون أطرها القيادية، وتستوضح أفكارها، وتدرس واقعها وترسخ جذورها في صفوف الشعب؟

على الأرجح.

٣

أرفض أن أصدق

أخلص من كل ما تقدم الى هذه النتيجة وهي: أنني أردّ القوى ـ الأطراف المتصارعة ـ المتعاونة على أرض الوطن العربي من أجل حل الإشكالات العربية، الى ثلاث:

١ ـ الشعب الذي، كل مرة يصطدم في مأزق، يعبّر عن وجهة نظره بوضوح عما يعتقد أنه جذر هذه الاشكالات وهو التبعية والتجزئة. ويسير مع الذي يعتقد أنه يتمنى الخط الوحدوي التحرري، لكن الشعب ليس هو الذي يبحث عن الطرق المؤدية الى الهدف. فهذا البحث هو من شأن المثقف الذي يدرس الواقع، ومن شأن السياسي الذي يعبّيء الطاقات اللازمة لتجاوز الإشكال وتحقيق الأهداف. ويبدو لي أن الفرق زهيد بين وضع القوى الثلاث، هذه من حيث علائقها تباعدها وتقاربها التي يقال عن نظام الحكم فيها إنه يساري تقدمي، وبين الأقطار التي يقال عن نظام حكمها إنه سلفي رجعي. فحكومات الأقطار العربية كلها، ومن دون استثناء، تعلق عملياً الشعب، تحسب كل منها مصالحها القطرية وتقوم بتسويات مع الأجنبي حفاظاً على مصالحها القطرية والشخصية، وللحصول على مكاسب اضافية إذا أمكن. فالأمة العربية الواحدة حاضرة بحضور قوي في الشعارات

والخطب، غائبة كلياً عن الواقع المعاش أو عن الحلول المقترحة. فالإشكالات عينها تظهر بوضوح وبشكل مفارقات جديرة بالوقوف عندها، على الخصوص في الأقطار التقدمية. وذلك لأسباب كثيرة تتجمع كلها في واحد منها؛ وهو أن الحاكم والمثقف كليهما من منبت شعبي على العموم، ناضلا في حزب واحد أو في أحزاب متقاربة أيديولوجياً، من أجل ثورة شعبية تقضي على الاقطاعية والبورجوازية وتقيم في القطر حكماً شعبياً، اشتراكياً، ديموقراطياً... يحقق ديكتاتورية البروليتاريا التي صارت ديكتاتورية الشعب والجماهير الشعبية (حيث الشعب غائب تماماً). وتتحقق الثورة، يقولون إنها تحققت، فإذا بالحاكم يقرّب من شاء من المثقفين ـ وهم قلة ـ يضعهم في خدمته، والباقون؟ رماهم جانباً. وهذا من حقه. فالثورة التي هي حدث استثنائي، أعطت لذاتها سلطات استثنائية لتحل مشكلات استثنائية، ومع مرور الزمن صار الاستثنائي هو الوضع الطبيعي. وقبلناه كلنا بشكل طبيعي (قل: صار اللاطبيعي طبيعياً. ونحن الذين جعلناه كذلك). أما المثقف، فجعل من الفرض حقيقة عن قناعة أو عن غير قناعة، سيان، فجحا يصدق ذاته بسهولة. ولكنه صار ضحية اللعبة التي كان طرفاً فيها. إن ما لا يمكن للمثقف أن يصدقه هو سؤال يؤرقه: لمَ هو ولست أنا؟ لم لست أنا طرفاً في المكاسب مع أني كنت طرفاً أساسياً في اللعبة؟!. وها هي العلاقة بين المثقف والحاكم تستحيل بسهولة حذراً واحتقاراً متبادلين.

ويتساءل الحاكم وهو غارق في المشكلات ـ والخيرات: الثقافة؟ وعلام الثقافة؟ إنها ترف في محيط جائع. تكفينا الأفكار التقدمية والثورية التي جعلنا منها أمراً واقعاً.

وهكذا انتقل المثقف من موقع الفعل والمبادهة الى موقع الانفعال

والتلقي. يطلب رضا الحاكم عسى أن يحصل على فضلات المجتمع الاستهلاكي. قل: صار هامشياً.

كان المثقف العربي يعرف أن المفاهيم التي صاغها أو كان شاهداً على صياغتها ليست أكثر من أهداف كبرى، وأن من الضروري معرفة ما يقابلها في الواقع بحيث تصبح لكل منها قيمة اجرائية. إلا أن هذا الطلب المعقول والواقعي تحوّل في ذهنه الى آخر أوحى به الشيوعيون، وضمناً فرضوه على كل التقدميين، وهو أن الحركة السياسية الراديكالية يجب أن تنطلق من فلسفة كاملة تجيب على الأسئلة المطروحة في مرحلة تاريخية معينة. المطلب الأخير هذا أدخل التقدميين في دوامة لم يتمكنوا من الخروج منها إلا عندما ترجم الى العربية مقال ستالين الشهير (المادية الجدلية والمادية التاريخية)[1] الذي جعل من التقدميين شيوعيين بعناوين مختلفة. كان ذلك عام ١٩٤٣ إثر الاتفاق الرباعي (تشرشل، روزفلت، ستالين، ديغول) الذي مكّن السوفيات من نشر أدبياتهم الحزبية في الوطن العربي؛ أدبيات لبت حاجة أساسية لدى المثقف العربي. إذ مكنته من أن يحيط بمشكلات معقدة كانت تربكه، ويجد بواسطتها موقعه من هذا العالم. والأمر الحاسم في هذه الكتابات أنها علمية. قالوا لهم: علمية؛ وصدقوا. والذي يسير على هدي العلم يجد طريقه عاجلاً أم آجلاً. قلت: إن الكتابات الستالينية ـ المبسطة ـ قدمت للمثقف العربي مفتاحاً يفتح كل الأبواب. ومع أنها لم تفتح باباً واحداً حتى الآن، فيجب أن تفتح.

وهكذا تحقق اللقاء بين الثورة والأيديولوجيا الثورية والواقع الثوري. وراح الكثيرون، وبكثير من السذاجة يبحثون عن الثورة والديالكتيك والصراع الطبقي والديموقراطية الشعبية في تراثنا. كما

(١) الكتيب فصل من فصول، **تاريخ الحزب الشيوعي**، الذي وضع بإشراف ستالين.

نشأت بين المثقفين العرب فئة كبيرة طليعية ـ طليعية جداً ـ مستعدة لاتهامك بالرجعية والعمالة إذا ألقيت عليهم سؤالاً فيه بوادر شك في ما يؤكدون.

لم ينتبه المثقف العربي الى أنه استبدل ديناً ـ صار عتيقاً في نظره ـ بدين آخر له يقين العلم ووثوقيته. ولا أعرف بالمناسبة عالماً له من الوثوق بنظرياته، ما للمنظّرين الأشاوس.

الغريب العجيب أن المثقف العربي لم يسائل ذاته عن علاقة أيديولوجيته بالواقع الذي يعيشه. فالواقع يجب أن يصير مثل الأيديولوجيا. يروى عن بيكاسو أنه صنع صورة لسيدة رأتها عند اكتمالها، فصاحت: هذه ليست مثلي. فأجابها الفنان: ستصيرين مثلها.

لقد كانت الماركسية ـ اللينينية عند بداية دخولها الوطن العربي من الأبواب العريضة، عامل تقدم لفكرنا. إذ حرضته على مراجعة مفاهيمه وفتحت له مجالات جديدة وواسعة للمقارنة ولنقاشات كانت في حينها منتجة حقاً. إلا أن غياب الفكر النقدي لدى المثقف العربي، جعل منها إطاراً ضيقاً خنق بالنتيجة الفكر العربي الذي صار يتقيد بحرفيتها، لكأن مفاهيمها وُجدت من الأزل والى الأبد. على أية حال فإن الأيديولوجيا الشيوعية والنقاشات الكثيرة حولها والشروح، أنْسَت المثقف الواقع الذي جُعلت من أجله الأيديولوجيا الماركسية ـ اللينينية.

بهذا العقل الجامد، واجه المثقف العربي، في أزمة الخليج، عقلاً منهجياً سريع الحركة يعيد النظر باستمرار في أطره العقلية؛ كما واجه إعلامنا بالكليشهات العتيدة، إعلاماً مرونته وقدرته على التلاعب بالنظريات وبالمواقف والعواطف، تجعلك تشكك في عقائدك الأرسخ. أما السياسي الذي ألِف الارتجال والحماسة الجاهلية،

فقد واجه أمماً متحدة خططت لغزوها منذ أكثر من عشر سنوات[٢].
أضف المـرض الأكبر الذي أضيف الى أمراضنا الكثيرة، أقصد العـطش القـاتـل الى الترف. فالمجتمع الاستهلاكي الذي انتشر بسرعـة خاطفـة في طول الوطن العربي وعرضه (حصان طروادة القرن الواحد والعشرين)، خلق لدى الفقير والثري، حاجات وأيقظ غرائـز عطّلت لدى العربي الحس الأخلاقي الذي هو أساس في سلوكنا، كما هدم نظام القيم العربية الموروث. وجعلنا نبذل ما لدينا من ثروات طبيعيـة وبشريـة، ومـا يجنيه أبناؤنا بعرق جباهـهم، للحصول على متع عابرة ولذات جسدية تافهة، عوضاً عن توظيف رؤوس أموالنا الطائلة في مشروعات صناعية وزراعية منتجة، شأننا في ذلك شأن الحشّـاش يعرف أن الحشيش يستنفد ذرات عقله وجسده، ويقبل مع ذلك عليه بنهم متزايد، لأنه صار من مكوّنات عضويته.

تلك كانت حالنـا عنـدما فاجأنا الغزو الأكبر. فلا عجب إذا كنا واجهنـاه ـ ونواجهه ـ بعقل مهزوم حتى عند الذين ادّعوا أنهم سينتصرون؛ تشهـد عليهم ردود فعلهم البـائسـة، وتصريحاتهم المتناقضة بعضها مع البعض الآخر؛ لكأننا نبحث في خضم بحر هائج عن قارب للنجاة فلا نجده. أما الذين يهلّلون اليوم ويكبّرون لاعتقادهم أنهم انتصروا، فحالهم حال الذي يحوّل عقدة النقص الى عقدة تفوق. لقد قيل عن حرب الخليج إنها حرب حضارية وإن المهزوم فيها هو التاريخ العربي. قلت: هل هزم حقاً ماضٍ عمره خمسة عشر قرناً، كان طيلة قرون يضيء بعلمه عالماً غارقاً في الجهل؟

أرفض أن أصدق. فماذا عن المستقبل؟

---

(٢) راجع مقال رياض نجيب الريّس، «الخليج العربي: عودة الاستعمار»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١ ص ٦ ـ ٩

٤

قصور حضاري

لقد كشفت حرب الخليج والأزمة التي سبقتها وما تزال مستمرة، عن مجموعة من الحقائق كانت في السابق مضمرة، نتحسّسها ونفضّل أن لا نقولها:

أولاها، التباعد بين الحاكم والمحكوم، بين الراعي والرعية، بين السلطة والشعب، إلى حد قد يصير معه انفصاماً. فالحذر وعدم الثقة متبادلان بين الطرفين كليهما. هذا التباعد مزمن يرقى الى عهد المماليك وإلى ما سبقه ورافقه ولحق به من حروب أهلية صار معها الخوف من الحاكم منعكساً شرطياً لدى الشعب. فالسلطة في النظرة التقليدية عندنا، هي أن الحاكم قوة قاهرة تبتز أموال الناس وتجعل منهم وقوداً لحروبها. صحيح أن النهضة في الحربين العالميتين وما سبقهما ولحق بهما من حركات ثورية ومقاومة للاحتلال، كانتشار الأيديولوجيات، فالانقلابات والثورات من أجل حكم شعبي... كل هذا أيقظ الشعب، نبّهه الى وجوده، دوره، قوته... وإلى حقوقه... وأيضاً الى الطريق التي تعيد اليه مكانته المسلوبة. هذه الطريق هي: المدرسة والثقافة، الحركات الثورية والأحزاب التقدمية والنضال المستمر. ها هو الشعب يسلك هذه الطريق. وها هم أبناؤه يتسلمون السلطة في الأقطار المدعوّة تقدمية، أو تشركهم بها السلطات في الأقطار المدعوّة رجعية...

وتبقى الأمـور على ما هي عليه! فلمَ خان السياسيون والمثقفون الشعب؟ لمَ فاجـأتنـا حرب الخليج وقد بلغ التباعد بين الحاكم والمحكوم حداً قلما بلغه حتى في عهود الاستعمار؟

الحقيقة الثانية هي أيضاً تباعد الى حين الانفصام، ولكن بين قول الحاكم وعمله؛ وأيضاً بين أقوال العديد من المثقفين وكتاباتهم وبين سلوكهم. هل نسينا في التسعينات لغة الخمسينات[1]؟

لا أظن. فلا أعرف مرحلة من مراحل تاريخنا كثر فيها الكلام على العرب والأمة العربية، على الديموقراطية وإرادة الشعب... تكاثره اليـوم وقبـل عامين. وحدها كلمة (اشتراكية) صار الكلام عليها مربكـاً، كمـا صار معنـاه اشكـاليـاً بعـد انهيـار الامبراطورية السـوفيـاتيـة. إن الذي تبـدّل فعلاً وبشكل جذري هو المجتمع العـربي، وتبـدّل معـه موقع مفاهيم الخمسينات منّا وموقعها في نفوسنا، حكاماً وشعباً ومثقفين. إذ أدركتنا الثورة العلمية ـ التقنية لا بذاتهـا فنحن نجهلهـا، وإنما بنتاجها، آلات وسلعة. وإذا بنا نعيش في مجتمـع يختلف في حقيقتـه ومـظاهـره عن مجتمـع الخمسينات. ومن ظواهر هذا الاختلاف: التفاوت الهائل بين الغني والفقـير، سوق التـرف المعممـة، تربيـة تخلق في نفوس الشباب ازدواجية في الشخصية صارت كأنها طبيعة فيهم، هي ازدواجية القول والعمل التي انتقلت من الحاكم الى المحكوم. أضف ترسخ القطرية ونشوء محاور اقليمية قد تبلغ أحياناً درجة الكونفيدرالية. ويبدو لي مما يتم في مؤتمر السلام من مناورات أن المنطقة على عتبة تبدلات أخرى كثيرة بعد أكثر جذرية مما تقدم. أضف أيضاً التبدّل في نظرة الناس بعضهم الى البعض الآخر. كل هذا وغيره جعل من مفاهيم الخمسينات كلمات جوفاء. ولا أعتقد أنّ شاباً في العشرينات

(١) رياض نجيب الريّس، «الخليج العربي. عودة الاستعمار»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ٦ ـ ٩

من عمره اليوم، تكوّنه الظواهر التي ذكرت أكثر بكثير مما تكوّنه المدرسة، يمكن أن يرى ما كنا نراه في الخمسينات، عندما كنا نتحدث عن السلطة الشعبية أو عن الحرية والرأي العام... وما شاكل من مفاهيم كانت ثورية في تلك الأيام.

الحقيقة الثالثة هي أيضاً تباعد وانفصام هذه المرة بين الثقافة والمصالح، وربما بين تاريخ الثقافة وتاريخ المصالح. يبدو لي أن الدول المتقدمة أو المصنّعة، وإن كانت ما تزال كل منها حريصة على نشر لغتها وثقافتها، فإنّ ساستها صاروا يرون في الثقافة تابعاً للمنجزات التكنولوجية التي نشتريها منهم بأكثر الأثمان ارتفاعاً، وتابعاً أيضاً لحركة رؤوس الأموال التي توظف هنا وهناك في البلاد المتخلّفة أو التي تعطى على شكل قروض. ولهذا فإن رسول الأمم المتقدمة الينا، لم يعد الأديب أو المفكر، المدرسة أو الكتاب، بل صار الخبير رجل الأعمال، كبار الممولين والشركات متعددة الجنسيات. وإن صفقة من الطائرات النفاثة أو الصواريخ البعيدة المدى، تباع الى دولة نفطية، لأفضل كثيراً في نظر الدول المصنّعة من مكتبات العالم ودارسيه!

هذا الغرب ليس غربنا[٢]، يقول أنسي الحاج، غربنا هو سرفانتس وشكسبير، لوثر وشارلي شابلن، رامبو وباخ، فوكنر وبيرانديلو... وأيضاً ديكارت وكانت، باسكال وماركس وهيغل.... صحيح ولكن عندما نسلك الطريق التي تمكّننا من أن نكوّن تراثاً يضع في المستقبل شعراءنا ومفكرينا بين الأعلام الذين يذكرهم أنسي الحاج. لقد شقّت مجلة (شعر) في أواسط الخمسينات درباً للشعر اعتقدنا كلنا في الستينات أنه بداية موفقة لتجاوز التخلف.

(٢) أنسي الحاج، «خواطر تحت دعس الخيل: كم أنت ابله أيها العظيم!»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ١٣ ـ ١٥.

والتخلف هو أولاً في الفعل يتبدى أول ما يتبدى في الأداة التعبيرية. فقل لي، يا شاعر، أين هو شعرنا اليوم من شعر تلك الأيام الواعدة القريبة البعيدة عنا؟ قل لي: علام تأخر فكرنا عن المستوى الذي بلغه مع طه حسين ولطفي السيد وقبلهما مع محمد عبده وشبلي الشميل وغيرهم؟ قل لي: ما هي العصا السحرية التي جعلت من مفاهيم الخمسينات شعارات صارت عدّتنا الوحيدة في مواجهة الزحف الثقافي الذي سبق الزحف العسكري؟

إن العراق عندك يا شاعر ـ وعندنا ـ هو نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، البياتي وجبرا، سعدي يوسف وسركون... فمن أو ما الذي أخرس هؤلاء وغيرهم في العراق وفي الأقطار العربية الأخرى عندما عصفت رياح الكارثة وتبارى أدباء الغرب ومفكروه في مناقشات وضعت كلها في خدمة الغزو؟ من أو ما الذي جعل العدد الأكبر من المثقفين العرب يتسكعون على أبواب الأثرياء من الحكام ورجال الأعمال... هذا طلباً للرزق، وذاك للمنصب وثالث سعياً وراء ترف ليس منا ولا لنا.

يبدأ وجود الجماعات والأمم عندما تعي كل منها ذاتها وكونها هوية متمايزة. ويأخذ هذا الوعي شكلاً إجرائياً عندما ينتقل الى مستوى التعبير المبين. وذلكم هو الإشكال العربي: نحن أمة أوجدها ـ ويحفظها في الوجود ـ لسانها وتراثها وثقافتها؛ فلماذا أصيبت الأمة العربية بقصور ثقافي هو ـ بالنسبة الينا على الخصوص ـ كالقصور الحراري، يلاشي في الموجود طاقته فيلاشيه؟ أهو القمع المنظم لكل من يشذ عن اللسان الرسمي كما يقول كثيرون. أم سقوط المشروع الحضاري كما يقول ميشيل كيلو[٣]؟ أم الأيديولوجيا الستالينية التي شلّت حركة فكر العدد الأكبر من

(٣) المقال المذكور، مجلة **الوحدة**، العدد ٧٩ ـ ٨٠ من السنة السابعة.

المثقفين اليساريين؟ أم عدوى المجتمع الاستهلاكي التي هي كالايدز تُفقد الإنسان مناعته الفكرية والروحية؟ أم العزلة القطرية التي تجعل المثقف مصاباً بقصر في البصر؟ أم عقدة الانتهازية؟ إن تضافر الأسباب هذه كلها (بنسب متفاوتة لدى كل مثقف طبعاً) هو الذي حكم على الحركة الثقافية بالشلل، على الخصوص في مجالين متكاملين منهما تستمد الثقافة ديناميكيتها ومعناها، أقصد الشعر والفكر. والشلل توقف، وكل توقف تراجع يتسارع بتسارع حضارة متسارعة أصلاً.

٥

الآلة المسفسطة تتحداني

والأخطر شأناً، هو أن هذا التوقف تمّ في إطار واحد من المنعطفات التاريخية الأبعد مدى والأعمق جذوراً، منعطف لم ننتبه اليه، لم يخطر ببالنا الانتباه اليه وإلى نتائجه علينا، على ثقافتنا وعلى وحدتنا، مع أنه قطّع ما تبقى لها من أوصال ومزقها إرباً إرباً: أقصد الثورة العلمية ـ التقنية التي بدلت وتبدل جذرياً المجتمعات في العالم كله، من حيث بنى كل منها وخط سيرها. وقد تفجر من الداخل الأمم والوحدات الاجتماعية الهشة البنيان. وهذا ما حصل فعلاً في امبراطورية ستالين وتوابعها في أوروبا الشرقية، فالأمة اليوم غيرها في الماضي القريب، وكذلك الشعب والاشتراكية، الديموقراطية والرأي العام. هذه الثورة وحضارتها التكنولوجية المبرمجة، هي التي واجهناها في حرب الخليج ببنى عقلية واجتماعية ترقى الى ما قبل الثورة الصناعية بكثير. والغريب، هو أنه لم يستوقفنا في التحولات الهائلة التي تتم في المجتمع الانساني سوى الآلات العملاقة. وها نحن اليوم والعديد من بلدان العالم المتخلف، في سباق للحصول على الموادّ الأولية والآلات التي تستخدم لصنع القنبلة الذرية، مع أننا نعلم ـ وقد لا نعلم ـ أن كل غرام من اليورانيوم مصيره محسوب وحركته مراقبة. كما توهمنا أيضاً أنّ حصولنا على بعضٍ من الأسلحة المسفسطة أو صنع ما يشبهها، يمكّننا من الصمود في وجه الدول

المتقدمة. وحصل بعضنا على بعض من ذلك... ولكنهم هزموا قبل أن يتمكنوا من استخدامها...... لأنهم نسوا ونسينا أن الآلة بدائيةً كانت أم مسفسطة، لا تنفصل عن نظام اجتماعي ـ عقلي ـ انساني متكامل هو الذي يستدعيها، يصنعها ويستخدمها. فالصاروخ يصير في مجتمع متخلّف رمحاً. والعربة المصفحة حصاناً... والاتكال على الله.

إن النظام الذي واجهناه في أزمة الخليج، والذي نواجهه اليوم في مؤتمر السلام، والذي خطّط للمعركة ونتائجها، يقوم على أسس كثيرة أذكر خمسةً منها، لأنها تكشف بالمقابل عن هشاشة وفساد النظام الاجتماعي الذي نواجه به الدول المتقدمة، منذ نصف قرن ونيف:

١ ـ التخطيط الدقيق للأساسي من الفعاليات الفردية والاجتماعية في الحاضر وفي المستقبل القريب على الأقل.

٢ ـ البحث العلمي الذي تُرصد له بسخاء الاعتمادات الكبيرة وتُجند له الطاقات العقلية الواعية.

٣ ـ تعبئة الحد الأعلى الممكن من الطاقات لزجها في معركة النمو.

٤ ـ الادخار وتوظيف المدخرات في مشروعات انتاجية.

٥ ـ محاولة الربط بين المدرسة والمعمل ضمن الحدود الممكنة، وفي الوقت نفسه محاولة تأمين الحد الأدنى من الثقافة العامة لكل شاب وشابة.

ونحن التقدميين بماذا واجهناه؟ بالأيديولوجيا الستالينية العلمية جداً؟ بلى. وما نزال. والانسان عندما يضعف يصير أسير عاداته. وكذلك الاتحاد السوفياتي العظيم. ففي حين كان العالم الرأسمالي يفيد من كل طاقة جاهزة أو واعدة، أياً كان انتماء صاحبها، كي يرفع من مستواه التكنولوجي والانتاجي، كان الاتحاد السوفياتي

ـ المرحوم ـ لا يقبل في عداد العاملين لديه إلا مَن برهن على أنه مِن المتحمسين جداً للإيديولوجيا عينها. وهذا كان من دون شك من الأسباب التي أدّت الى انهياره.

ونحن كذلك.

فالحرص على النظام (التقدمي طبعاً)، قبل الحرص على الانتاج. والحرص على الثورة (الشعبية طبعاً)، أهم بكثير من الحرص على الشعب وعلى الانسان.

فالمعيار في أحكامنا هو الإيديولوجيا، بها نحكم على البشر وتصرفاتهم. وأحكامنا قاطعة لا تقبل الاستئناف ولا النقض أو التمييز. فأحدهم مثلاً يجمّع الأدب السوري المعاصر كله ويضعه في كيس واحد عليه لافتة (البورجوازية الصغيرة). وآخر يخلق الصراع الطبقي كي لا يفوتنا الركب. وثالث يتهم مؤرخي الفلسفة منذ أرسطو[1] وأيامه، الى أيامنا بأنهم، أخطأوا في فهم هذا التاريخ، لأنهم لم يربطوا الفلاسفة كلاً منهم بعصره. وبالمقابل فإن الدراسات عن أي جانب من جوانب واقعنا العربي، نادرة جداً، بحيث أن المثقف لا يعرف عن واقعه إلا ما يترجمونه له من اللغات الغربية. والأندر هو الدراسات التي تستند الى المادية التاريخية ومفاهيمها الأساسية (الانتاج وعلائقه) لفهم الواقع العربي.

قلت إن حرب الخليج هي واحدة من الضربات الأقسى والأمرّ التي تلقيناها خلال تاريخنا الطويل. فهل أيقظتنا إلى حقيقتنا وإلى مسؤولية كل منا عن تزييف هذه الحقيقة؟ أنا لا ألوم. فلكلٍ أسبابه وظروفه. وما نفع اللوم؟ ولكن إذا جاز لنا أن نحدد المسؤولية، فالمثقف هو المسؤول الأول. لقد قسمت حرب الخليج

(١) يضع أرسطو في كل من كتبه فصلاً هو الأول في الكتاب على العموم لتاريخ المسألة التي يعالج.

المثقفين الى ثلاثة أفرقاء: فريق ناصر أفراده كل منهم قطره، بشراسة كبيرة أحياناً. فريق آخر لزم الصمت. وفريق ثالث تجاوز أفراده، كل منهم قطره وحزبه، لينظر الى حرب الخليج بمنظار قومي. هؤلاء ـ وهم من التقدميين على ما أعلم ـ هم أمل المستقبل. وقد يكونون نواة تعدّ لنهضة ثانية. أما السلفيون، فلا سبيل الى التحدث معهم أو عنهم، لأنهم اعتقدوا بعد ما لاقوه من نجاح في بعض الأقطار، أن الحق بجانبهم. وتلك ظاهرة من ظواهر تاريخنا الحديث التي يجب أن تكون واحدة من مشكلات، على الفكر العربي أن يدرسها بكثير من التأنّي والتمعّن وبموضوعية كاملة.

الانسان مستقبله، سواء في ذلك الفرد والجماعة، الشعب والأمة. الراهن فسحة عمله ومعناه في الآتي، فكل يقظة، كل وعي، كل تجديد، كل تكوين... موضوعه الانسان، لا يمكنه أن يحقق نتيجة ايجابية أو أن يستمر، إلا إذا انطلق من المستقبل. فما المستقبل الذي نريده لهذه الأمة؟ ما السبيل اليه؟ إن الجواب على هذين السؤالين عسير في عالم قلت عنه أكثر من مرة إنه يتبدل باستمرار، وإن توازن القوى العالمية فيه هو دوماً موضع إعادة نظر. فدليلنا الوحيد إلى الآتي هو الملامح الكبرى الثابتة للحضارة التكنولوجية المبرمجة بما هي كذلك في نماذجها الأكثر تقدماً. إذ ضمنها تتفاعل القوى وفي أطرها تتجمع الأحداث وتؤلّف كلاً. وسؤالنا الآن هو التالي: ما موقعنا من هذه الحضارة؟ وما يجب أن يكون عليه في المستقبل؟

لقد كثر منذ سنوات الكلام على الغزو الثقافي الى حد الإملال. هذا الغزو واقع لا نستطيع تجنبه، فلنقل بالأحرى إنه غزو حضاري. إذ إن الحضارة التكنولوجية حلّت في ديارنا منذ زمن؛ واحتلالها هذا يتسارع وسيتسارع أكثر فأكثر في المستقبل القريب. والثقافة لا تنفصل عن حضارة ما.

ومفارقتنا نحن العرب، تناقضنا مع ذاتنا، هو أننا نطلب الاستقلال والحرية، وفي الوقت نفسه نطلب المزيد من الأسلحة والآلات المسفسطة والسلع الاستهلاكية. وقد طلعت علينا حرب الخليج ببدعة كانت قبلها مرفوضة، وهي طلب بعض أقطارنا حماية أجنبية. وها هي جيوش العدو تسرح وتمرح في ديارنا.

وهاك الملامح الكبرى للحضارة التكنولوجية المبرمجة:

١ ـ إحلال الصناعي المتزايد محل الطبيعي، فغذاؤك، كساؤك، سكنك، دواؤك... صارت كلها مسبقة الصنع.

٢ ـ إحلال الآلة المتزايد أيضاً محل الانسان. فالمشكلة التي تصطدم بها تقدم معطياتها للكمبيوتر وهو يقترح لك حلاً أو حلولاً تختار واحداً منها.

٣ ـ إحلال التخطيط ـ المتزايد أيضاً وأيضاً ـ محل العفوي، والحساب محل المبادهة الشخصية. فطاقاتك، امكاناتك، ردود فعلك... محسوبة. إن لم تقم أنت بالحساب، تولاه غيرك.

٤ ـ سيطرة الخبير. فكل سياسي، كل إداري، كل رجل أعمال... عليه، إن لم يكن متخصصاً، أن يرجع قبل أن يبدأ أي عمل من أعماله، إلى متخصص يبين له الحلول الممكنة والنتائج المترتبة عليه. فإنسان عالم الغد ليس السياسي وحده ولا الإعلامي وحده، ليس رجل الأعمال أو المفكر ـ الفيلسوف وحدهما. لقد صار الباحث العلمي هو والخبير، بعداً أساسياً من أبعاد السياسة والاقتصاد، الإعلام والفكر الفلسفي. هل يعني هذا أن دور الثقافة العامة التكوينية قد ارتدّ الى المرتبة الثانية، وربما ألغي كما يبدو من سلوك بعض قادة العالم المتخلف؟ للوهلة الأولى نعم. ولكن إذا نظرنا الى مستقبل الانسان على المدى البعيد كما يتبدّى لنا اليوم في امكانات

الواقع المستقبلية، نلاحظ أن الفعل المكوّن للإنسان، أمام أحد خيارين: إما أن يستند إلى ثقافة عامة معمقة وواسعة تؤسسه، وإما أن يقوم على فراغ ثقافي فيسقط بسرعة مع التبدل في نظام الحكم. والأمثلة حاضرة أمامنا اليوم بغزارة. لقد انقلب الرأي العام بسرعة خاطفة في أوروبا الشرقية وفي العديد من بلدان العالم المتخلف مع انقلاب الأيديولوجيا الستالينية الى عكسها. وصار المثقف التقدمي في وضع مربك لا يدري معه كيف يواجه نفسه والناس.

٥ ـ سيطرة الإعلام. فموقفنا السياسي، توقعاتك الاقتصادية، علائقك بالناس وموقفك منهم، ذوقك... كل هذا يحدده لك إعلام يرافقك ليلاً نهاراً ويملي عليك سلوكك، حتى عندما تظن أنك تأخذ في سلوكك الخط المعاكس لما يقوله. ثمة محاولة على نطاق الكرة الأرضية ترمي الى تدجين الإنسان فرداً وجماعات، من وسائلها تحديد موقعك من النظام الهرمي الذي أشرتُ اليه، والذي صار بعد تفكيك الاتحاد السوفياتي وحيد الرأس.

هل يعني ما تقدم أنّ الحرية الفردية ـ حرية الانسان في إبداع ذاته وعالمه ـ قد تقلصت وقد تحاذي يوماً درجة الصفر؟ أبداً، إلا أن ممارستها صارت أعسر وتستلزم ثقافة عامة ـ في عصر التخصص الدقيق ـ تمكّن الانسان من معرفة ذاته وعالمه والسيطرة على هذا العالم ضمن حدود المستطاع. وبكلمة فإنّ المعرفة هي اليوم طريق الحرية. وربما أن إحدى معارك الحرية الأشرس هي اليوم مع الإعلام أو مع محاولة التدجين التي أشرتُ إليها للتو؛ يزيد في عنفها أنها غير معلنة. ولقد كان للثورة العلمية ـ التقنية وللحضارة التي نتجت عنها مفعول هائل على صورة الانسان، وعلى تصوره لذاته ولعالمه ولنظام هذا العالم؛ مفعول يباعد بسرعة بيننا وبين ماضي كل منّا. وهاك بعضاً من

سمات العالم الانساني الذي يتكوّن على مرأى ومسمعٍ منا:

١ ـ جعل العالم الانساني عالمين، العلاقة بينهما علاقة تبعية: العالم المتقدم والعالم المتأخر. الأول ثري الى حد الاسراف. والثاني فقير الى حد الموت جوعاً. وقد يصير أحياناً مجموعة أشياء يتصرف بها الأول كما يشاء.

٢ ـ تقسيم العدد الأكبر من المجتمعات الى طبقتين: الأولى بيدها الثروة، فهي تبذر بلا حساب. والثانية، وتشمل العدد الأكبر من الناس تتضور جوعاً. وهذا وضع يشلّ الصراع الطبقي الكلاسيكي ويجعله غير ذي بال.

٣ ـ تكوّن رؤية جديدة للكون، في أساسها النظريات العلمية الحديثة ومنها بالدرجة الأولى حتى اليوم نسبية أينشتاين المعممة؛ وقد يكون لنظرية المعلومات في المستقبل القريب أثر كبير في تبديل أو تعديل الرؤية الراهنة. والرؤية، أية كانت، تسهم في تبديل بنى المجتمع وقيمه، معناه وعلائق البشر ببعضهم. وواضح منذ زمن أنّ الرؤية العلمية للعالم وللإنسان، قد دخلت منذ أكثر من قرن في صراع مكشوف مع الرؤية الموروثة وقيمها.

٤ ـ ويلزم عن انتشار العلم والآلة معقولية غير المعقولية الموروثة عن العلم الكلاسيكي. وهذا موضوع لا مجال للدخول في متاهاته الآن.

٥ ـ تكوّن نظرة جديدة للانسان يستدعيها التخطيط المعمم والاستخدام المعمم أيضاً للآلة، نظرة حدّها الأقصى (موت الانسان) الذي أعلنه ليفي شتروس وبقية البنيويين وحققه قبلهم الفن التشكيلي مع براك وبيكاسو وغيرهما. ويقصدون بـ (موت الانسان) أنّ النظام الاجتماعي والاقتصادي

«المؤتمت» استوعب الانسان الى حد كبير أو جعله بعداً من أبعاده. وهذا أيضاً يستلزم دراسة معمقة (للحداثة) لا مجال لها الآن.

٦ ـ النتيجة الأخطر شأناً للثورة العلمية التقنية على الانسان وعلى عالمه، هي تفكيك بنى هذا العالم وأحياناً تفجيرها من الداخل. وقد شهدنا سيرورة تفكيك ـ التفجير هذه منذ بُعيد الحرب العالمية الثانية إلى ما شاء الله، على الخصوص في أفريقيا وفي وطننا العربي، كما نشهده اليوم في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، وهذه السيرورة هي التي تدفع اليوم الأمم المصنّعة أو المتقدمة الى تجميع وحداتها كل منها في وحدة سياسية ـ اقتصادية ـ ثقافية تضمن لكل منها استمرار التقدم والنمو.

ليست الثورة العلمية ـ التقنية ولا حضارتها التكنولوجية المبرمجة كلية الحضارة الحديثة. وليست الآلة المسفسطة أو التكنولوجيا المتطورة ـ كما يقولون أيضاً ـ، هي كلية الحضارة التكنولوجية المبرمجة. وإذا كنتُ قد شدّدتُ على الآلة المسفسطة، فلأنها كانت وما تزال وستبقى لزمن طويل على ما يبدو موضوع رهاننا الأول. وبالفعل فنحن نحاول الحصول عليها بكل ما لدينا من وسائل مشروعة وغير مشروعة. فهل ربحنا رهاناً عمره حوالي نصف قرن؟ السؤال يتضمن الجواب. كان الأولى بنا أن نراهن على السبل المؤدية الى التكنولوجيا العادية أو المتطورة؛ وأقصد منها ثلاثاً متكاملة هي: البحث العلمي، رفع مستوى الثقافة، وتنظيم المجتمع القطري والقومي، بشكل يعصمه من الانفراط الذي هو عليه ويمكنّه من استيعاب التقني الغربي الذي لا مكان له عندنا. فهو يسعى بالوسائل الشرعية وغير الشرعية للهرب إلى الدول المتقدمة.

إنّ الحصول على الآلة المسفسطة جاهزة، هو كالمخدر في حالة الألم الشديد، يسكّن ولا يشفي وسيستمر تحدي الآلة هذا إلى أن يدرك سياسيونا أن خلاصنا ليس حيث يظنون.

٦

معجزة واحدة تكفينا

قلت: إن انجازات العالم المتقدم ترتكز بشكل مباشر أو غير مباشر على العالم المتأخر، هي وسماته المميزة، مشكلاته، تعارضاته وصراعاته....، وذلك بأشكال عديدة، أهمها التعارض المضمر أحياناً والمعلن أحياناً أخرى بين القديم والحديث. وهذا التعارض هو في خلفية العديد من مشكلاتنا وصراعاتنا. لقد تطور العالم المتقدم بشكل تدريجي مستمر منذ خمسة قرون ونيف ـ وما يزال ـ رغم حروبه وثوراته، بحيث صار الى ما هو عليه اليوم في سلبياته وإيجابياته. أما نحن، فحين بدأنا نتعرّف على الثورة الصناعية بشكل مقبول، هبطت علينا فجأة الثورة العلمية ـ التقنية. ولم يخطر ببال أحد من مثقفينا، ولا ببال أحد من سياسيّينا، أن يتعرّف بشكل مقبول منطقياً الى هذه الثورة التي تهيمن اليوم على مقدرات العالم كله. وهذا الجهل الواقع نهاية هذا القرن، هو الذي يمكّن العالم المتقدم من التلاعب بنا جملة وتفصيلاً. وكيف يتأتّى لنا أن نتعرّف إلى عالم بعيد عنّا قريب منّا في الوقت عينه، ونحن نجهل أو نتجاهل المشكلات التي تصفعنا في كل ساعة من ساعات حياتنا. وها أنا أذّكر ببعضٍ من هذه المشكلات الأساسية التي كنت قد ذكرتها كلها في ما سبق: التضخم السكاني والمديني ـ التورّم الثقافي ـ المجتمع الاستهلاكي ـ يقظة الشعب وتزايد حاجاته المطرد ـ التفاوت

المخيف للثروات بين الأقطار، وبين الغني والفقير في القطر الواحد.

مركزية أنظمة الحكم التي قد تحاذي الدكتاتورية، والحكم يعتمد في البلاد المتأخرة على الأجهزة السريّة، يعلّق الحريات، يرفع الحصانة عن الموظفين وقد يرفعها حتى عن القضاة. وتستوقفك بهذا الصدد عبارة سميح القاسم: «نؤسس مجالس الشورى في حنين هائل إلى الدكتاتورية»[1]، لأنها تكشف عن الأصل النفسي الاجتماعي للتسلّط. وقد لاحظنا في اللقاءات الحزبية تقريرية الرأي. فإذا ما خالفت هذا الرأي، ألصق صاحبه بك تهمة الخيانة. فالحوار هو على العموم حوار الصم. وهذه نتيجة منطقية لتاريخ يمتدّ من الحكم العقائدي. أقصد حيث الحاكم يحكم باسم المطلق. وفي المطلق لا يساومون.

أجل إن العربي عقائدي بالوراثة وبطبيعته ـ والعقائدي محافظ، سلفي، حتى ولو كان طليعة بين التقدميين، يعود بأحكامه الى سلطة ما تسوغه، سيان أكانت سلطة لينين أم سلطة أي كتاب مقدس، يعشق «لذة الهروب الى الوراء والحنين الى ما ولّى»[2].

لم يستقر العالم العربي منذ قرون، فيأخذ شكلاً شبه نهائي، فالعربي قلق بنيوياً، لأنه يجهل ما يخبىء له الغد. فالصراعات كثيرة والقوى العاملة على أرض الوطن العربي عديدة وسريعة التبدل. وهاك بعضاً من صراعاتنا التي صارت مألوفة وكأنها من مستلزمات وجودنا:

١ ـ صراعات قبلية كثيراً ما تأخذ شكل حروب بين أقطار متجاورة على الحدود.

---

(١) «مقالة صغيرة في القول الكبير»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) عزيز العظمة، «فك الارتباط بين العروبة والاسلام»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٣، آذار/مارس ١٩٩١، ص ١٩ ـ ٢١.

٢ ـ صراعات اثنية أساسها الخلاف على حقوق الأقليات. وتلحق بها الصراعات الطائفية.

٣ ـ صراعات أيديولوجية، على الغالب بين التقدميين والسلفيين.

٤ ـ الصراع الأخطر شأناً هو بين البنى القديمة ـ الأسروية والعشائرية وغيرها ـ وبين البنى المستحدثة التي تصنّف الناس وتنظمهم وفق معيار المهنة التي يزاولون (اتحادات العمال والفلاحين أو منظمات الإدارة المحلية).

أمّا الصراعات الخارجية أو الدولية، فهي عموماً على مناطق النفوذ أو على الأرض. وتأخذ اعتيادياً أحد شكلين: إمّا حرب بالوكالة، أي بين سكان المنطقة المتنازع عليها، وإما الغزو المباشر كاحتلال ايطاليا لليبيا أو احتلال فرنسا لدول المغرب العربي... وقد بدأ هذا الغزو يأخذ شكلاً أكثر تعقيداً مع حرب الخليج. فهو من جهة استيلاء مباشر وشبه معلن على المنطقة العربية الأغنى بالبترول لصالح الدول المصنّعة، ومن جهة أخرى لنقل مركز الثقل في الوطن العربي من مكانه الطبيعي، الذي هو تارة مصر وطوراً سوريا، حيث نشأت وترعرعت فكرة العروبة، الى الأطراف كما يلاحظ كمال أبو ديب[٣]، الذي يقول أيضاً إن منعطف ١٩٧٣ شهد بزوغ الأقطار العربية المتحررة والمتقدمة ثقافياً على المسرح الدولي، بوصفها قوة يحسب لها عالمياً حساب[٤]. فصار من الضروري تحطيمها وإحلال الاسلام والأمة الاسلامية محل العروبة والأمة العربية.

(٣) «الانقلاب الثقافي ـ التجلي الجديد للحضور النفطي»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٠، كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠، ص ٦ ـ ١٠.

(٤) كمال أبو ديب، «صرخة في متاه»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٣، آذار/مارس ١٩٩١، ص ٤ ـ ٥.

كانت قد تحققت منذ اليقظة الشعبية الكبرى وحتى غزو الخليج (١٩٥٠ ـ ١٩٩١) أمور كثيرة جعلت الغزو ميسوراً:

١ ـ ترسّخ الدولة القطرية التي صار لها، مع مرور الزمن، شخصية اعتبارية تعترف بها هيئة الأمم، وأيضاً تاريخ تدرّسه في مدارسها، ومصالح تجارية واقتصادية تدافع عنها بشراسة، واليوم بدأ يتكوّن لها أدب خاص.

٢ ـ تدجين الشعب بحيث يقول ما يطلب منه الحاكم أن يقول، أو ما يعتقد أن الحاكم يريده، أمّا ما يضمر، فشأن آخر يكبته ضغط الحاكم ويردّه الإعلام الى مستوى اللاشعور.

٣ ـ تحييد المثقف المستقل، وهو أقليّة. وربط أكثرية المثقفين بالحكم عن طريق الترغيب والترهيب. وما تبقّى من إرادة استقلال الرأي تتولى خنقه الحاجات اليومية المتزايدة إلحاحاً.

٤ ـ تأطير الشباب منذ المدرسة الابتدائية وتربيتهم في كتب مدرسية تلقنهم معتقداتهم وأنماط سلوكهم.

٥ ـ ربط مؤسسات الدولة ـ ومنها المجالس الشعبية والقضاء والجامعة ـ بالسلطة التنفيذية، تتصرف بها كما يطيب لها.

٦ ـ ترك هامش ضيّق لحرية القول هو بمثابة صمام أمان، عبره ينفّس الناس عن انفعالاتهم المكبوتة، ويتسع أو يضيق هذا الهامش وفقاً لتقديرات السلطات السياسية. أمّا تحويل القول الى عمل، فينقضّون عليه بشراسة وهو بعد في مراحل الإعداد. ويطيب للحاكم في ظرف كهذا، أن يفتعل معارضة هي عنوان ديموقراطيته أمام نفسه وأمام الناس. إنها تمثيلية اتفقوا على أنها أمر واقع، فكل واحد من أطرافها يلعب دوره ويتوارى عن المسرح عندما ينتهي هذا الدور.

في وضع كهذا صار تواطؤ بعض الحكام العرب مع الأجنبي[٥] أمراً ممكناً، ومشروعاً قد يفاخرون به، وغايته مزدوجة، من جهة جعل الحرب سريعة، ومن جهة أخرى إنجاح مؤتمر السلام.

فهل فكّرنا بأنّ من واجبنا الإعداد لمقاومة هذه المؤامرة التي إذا ما نُفّذت ـ ويبدو أنها ستُنفّذ ـ كانت القاضية على الأمة العربية بما هي قوة من قوى المرحلة التاريخية؟ وقد تقضي على أملنا بيقظة ثانية، إذا جبن المثقفون فاستسلموا لإرادة الأجنبي المستعمر، وصار الباب مفتوحاً على مصراعيه لنهب ثرواتنا[٦] .

يلاحظ رياض نجيب الريّس بهذه المناسبة[٧] أن الشعب العربي في حالة تململ ومخاض. وقد كان كذلك في الأربعينات والخمسينات. ولكنْ وُجد في ذلك الزمان مثقفون حاولوا تثوير هذا الشعب، وظهرت بوادر ثورة وحدوية صحيحة. فعلام أجهضت؟ وما أسهل أن تجهض يقظة أخرى والعدو في ديارنا والمتواطئون معه كثر. والمثقف العربي متشائم على العموم، فمحمد الأسعد[٨] يعتقد أنه لم يبق لنا بعد هزيمة الخليج، هدف ندافع عنه. فالوجود العربي في درجة الصفر كما استخلص من كلامه. وشوقي بغدادي يُعدّ أكثر يأساً[٩] : انصراف أمراء الخليج الى التصوف والزهد. ـ تدفق النفط الى ما لا نهاية ـ تخلي الغرب عن هيمنته ـ تخلي «اسرائيل»

---

(٥) مجلة **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١.

(٦) صبري حافظ، «الحرب ومأساوية المثقف العربي بالسلطة»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١. انظر كذلك عبدالرحمن منيف، المقال المذكور.

(٧) «الخليج العربي: عودة الاستعمار»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ٦ ـ ٩

(٨) «اليقظة بين أربعة جدران»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٩) «خمس معجزات قبل تحدي الأباطرة»، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٢٨ ـ ٢٩.

عن الأرض وعن فكرة الوطن اليهودي ـ تنازل الحكام العرب عن كراسيهم وثرواتهم. أيوجد بعد أمرّ من هذا الكلام؟!

وأنـا أقـول معجـزة واحـدة تكفي: التخلي عن العقائديات، وعن جعجعة الإعلام من جهة، ومن جهة أخرى العمل المنهجي المنتج ثقافياً وعلمياً واقتصادياً. ويلزم عن هذا الموقف أمور كثيرة سأقولها في حينها.

٧

وحده العلم
مكشوف لا لغز فيه

يرى عبدالرحمن منيف[1] أنّ أمة حضارية ـ يقصد أنّ لها تاريخاً من الانجازات الحضارية ـ لا تموت. ويبدو لي أنّ واحداً من الأسس التي يقوم عليها انتشار الحركات السلفية بين الشباب والشابات، هو شعور العربي الضمني أو اللاشعوري بأنّ عليه أن يضع هويته أو حقيقته حيث لا تطالها أسلحة الغرب المسفسطة. وينسون وننسى أنّ المعركة على المستقبل، وأنّ الماضي، إنْ لم يكن أمامنا، فهو عبء علينا.

الواقع هو أنّا نجد ذاتنا، نحن العرب، في قلب حضارة لا ترحم الضعيف والمتخاذل. فهي توحّد العالم وتضعه تحت تصرف الأوفر علماً والأغزر انتاجاً. فثمة الخيار الأكثر حسماً نواجهه لأول مرة في تاريخنا الطويل، أقصد الخيار بين الحياة والموت. الحي انتاجه وكل انتاج جديد بهذا الاسم نصر على الموت. والمنزلة الأسوأ، بين منزلتي الحرب والموت، هي حيث يعيش الانسان على فتات إنتاج الآخرين. فمالي ومال السلعة المستوردة التي أشعر أنها تتراكم فوق رأسي وتكاد تخنقني، إذا كنت لست أنا المنتج لها؟ من الملاحظ أن الأمم المتخلّفة تقاوم الموت بانتاج الأولاد، وتجبر البشرية بهذه

---

(١) «أي عالم سيكون؟»، مجلة الناقد، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٤ ـ ٧.

الوسيلة على أن تواجه متضامنة، إشكالية تأمين الغذاء والكساء لهؤلاء الأولاد. وتنسى الأمم المتخلّفة أنّ أولادها اليوم، صاروا خدماً وربما عبيداً لمن يقدّم لهم قوتهم اليومي؛ وقد يجعل منهم الأجنبي وقوداً لحروب يشعلها في ديارهم فيموتون وهم يجهلون دواعي هذه الحروب ونتائجها. هذه هي الحقيقة المفجعة التي علينا أن نواجهها بصراحة وجرأة. فكل حرب أهلية على أرض هذا الوطن، هي حربي أنا، وعليَّ تقع نتائجها، حتى عندما أظن أني لست طرفاً فيها. إنّ عدو العرب ليس بالدرجة الأولى «اسرائيل» بل عقولنا. كما يقول أنسي الحاج بعد كثيرين[٢].

العربي واع. وعيه المفرط يدفعه الى حسابات لا تنتهي، كثيراً ما تجعل حركته بطيئة وقد تشلّها أحياناً.

العربي واع، يدرك بوضوح أنه مهزوم، لا في هذه الحرب أو تلك، بل على صعيد الرحم المولّد للهزائم، أقصد الهزيمة الحضارية. هذه المعرفة دفعته الى اختراع أسطورتين:

الأولى، هي أسطورة الصهيونية التي حاكت فيما يزعمون، مؤامرة للاستيلاء على العالم. فهي تشعل الثورات، وتحرض على الحروب. لقد كانت في قلب الثورة الفرنسية. وهي التي قوّضت من الداخل حصون الاتحاد السوفياتي. ولمَ لا تكون هي التي أوجدت الحركة الشيوعية وحرفتها عن مسارها، فأدت الى تفكيك عدد لا يستهان به من الدول، بالاضافة الى تفكيك الاتحاد السوفياتي العظيم. وبديهي أنّ الصهيونية ـ إياها ـ هي التي تفرض على الدول المتحدة الأميركية سياستها. ويبدو أنّ الأسطورة هذه، أعجبت

---

(٢) «كم أنت أبله أيها العظيم»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ١٣ ـ ١٥.

اليهـود، فهم يغذّونها وينشرونها في العالم بأشكال متعددة قلّما ننتبه إليها.

الثـانية، وقد برهن على صحتها العلم الحديث بكل فروعه، فيما يقولون. وخلاصتها أنّ العروبة وُجدت مع فجر التاريخ وتجسدت في الحضارات القديمة كلها، بما فيها الإغريقية والرومانية. فكل ما يأتينا من الحضارة الحديثة هو بالأساس من صنعنا. ويعجبك عندما تقرأ لأحد هؤلاء المنظرين، وهو يبرهن لك أنّ معركتنا اليوم مع الصهيونية هي اليوم في ايبلا أو في أي مكان أثري آخر..

ذلكم هو منطق اللاشعور، يبحث دوماً عن معادل لسد فراغ نفسي اجتماعي، بحيث يتعادل على مستوى الشعور الفردي والاجتماعي الـ(مع) والـ(ضد). هذا الفيض من البراهين العلمية جداً، هو سدّ فراغ لا أكثر ولا أقلّ. ولكنه في الوقت نفسه، يصرفنا عن المعركة الحقيقيـة التي هي معـركـة البحث العلمي، حيث الصراع على المستـوى الحضـاري الأرفـع، مثلاً بين اليابان والدول المتحدة الأميركية. وإذا كانت الدول المتقدمة في أوروبا وأميركا وشرق آسيا، قد اصطفّت الى جانب الدول المتحدة الأميركية، فلكي تحتفظ كل منها لذاتها بحصة من غنيمة حرب الخليج متناسبة مع رصيدها العلمي؛ والمغـامرة مضمونة النتائج. ولِمَ لا يساندون «اسرائيل» وغـطرستها كي ترضى عنهم الدول المتحدة الأميركية، وفي الوقت نفسه يمنّون على الفلسطينيين بكلمة طيّبة.

لقـد اعتقد ساستنا والعديد من مثقفينا، أنّ طريق العلم طويلة، يمكن أن نتجاوزها بالحصول على آخر منتجات هذا العلم، وبذلك نكون قد حرقنا المراحل بانتقالنا من المؤخّرة الى الصفوف المتقدمة في الحضارة. هذا الموقف الذي ندلّل عليه بسلوكنا، هو الذي علينا أن نتخلى عنه، كما أنّ علينا أن نتخلى عن الأساطير التي تحوّل عقدة النقص الى عقدة تفوّق. فالطريق بداياتها.

إنّ عالم الانسان مجموعة ألغاز، وحده العلم مكشوف، مسطح، شأنه شأن المعادلات الرياضية التي هي الصياغة الأمثل للحقائق العلمية. وأبواب العلم مفتوحة على مصراعيها أمام من يطلب الدخول، شريطة أن يدفع الثمن، الذي هو ذو وجهين: الأول الانصراف الى البحث العلمي والزهد لحد ما بمتع العالم الحديث. الثاني إعداد الباحثين وتكريس الأرصدة لتمويل البحث. يلي تنظيم المجتمع بشكل يتسع للباحث العلمي كما سبق وقلت... وانتظار النتائج.

إن القوة المهيمنة على المرحلة التاريخية اليوم، وإلى ما شاء الله، هي العلم بالدرجة الأولى لا التقنية. فالتقنية مرتبطة عضوياً الى حد ما بالعلم، فهو يستدعيها وهي تستدعيه. وإذا كان بعض العلوم يتكوّن كبحوث خالصة كما في الرياضيات الحديثة، فلأن العلم يكوّن لذاته رصيداً هو الذي تفيد منه التقنية في المستقبل القريب أو البعيد. ويبدو واضحاً من تتبع حركة التقدم العلمي، أنّ الدول الأكثر تقدماً هي حيث البحوث الأساسية تتكاثر. وهذه البحوث هي ما أسميه الترف الحضاري. والعجيب الغريب، هو أنّ هذا الترف بمتناول كل جماعة تعقد النية والعزم على أن تسعى اليه. كل هذا يجعلنا نتساءل: أين نحن من هذا (الترف)؟ إنّ السؤال وحده كاف ليدلّنا على موقعنا من العالم، وعلى الطريق التي علينا أن نسلكها كي نتجاوز موقع التخلف الى موقع يصير تدريجياً متقدماً. مرة أخرى أقول:

هذا ليس بالأمر العسير. والعلم هو الذي يستدعي شعر المرحلة وفكرها (لا محاكاة القديم بالمناسبة) حيث يعود اللغز الانساني.

٨

لا يغيّر الله ما بقوم ...

كان لنا في الخمسينات أهداف، ولم تكن لنا أسئلة، الأهداف يلخصها واحد منها: الثورة الشعبية الوحدوية، تحقيقها مؤكد، وربما أنه نسبياً قريب المنال. أكنا واهمين؟ أم على حق؟ لا أدري. وأقصد هنا بالأسئلة، تلك التي يطرحها واقع إشكالي، فالموجود في واقع الإحراج. بعد حرب الخليج صارت لنا أسئلة، ولم تعد لنا أهداف. أسئلة، لا نجرؤ حتى على التفكير بها، بل التحدث عنها أو مواجهتها. ويلخصها سؤالان:

أين موقعنا في نظام التبعيات الذي يطلقون عليه اسم (النظام العالمي الجديد)؟

السؤال الثاني: إلام تشير هنا كلمة نحن؟

أإلى الأمة العربية الواحدة التي كانوا يشيرون بهذه الكلمة إليها في ذلك الزمن؟ لم يهزم الشعب العربي. لم يخض الحرب فيهزم وتهزم معه الأمة. إلّا ان المتخاذلين منا اغتنموا الفرصة ليطعنوا الأمة من ظهرها ليجهزوا عليها وينزعوا من رؤوسهم شبحها، الذي كان وما يزال وسيبقى كابوساً عليهم، وعقدة تقض مضاجعهم، وهذا الخوف المزمن عندهم، هو الدليل الأصح والأقوى على أنّ الأمة العربية ما تزال حية، رزقها، بعد الله تعالى، على الشعب الفقير الذي تشكّل هي حقيقته.

لقد صارت الوحدة العربية بعد حرب الخليج إشكالية. والإشكال في لغة الفلسفة يشير إلى مشكلة لا حل لها عند طرحها، ولكن قد تحلّ يوماً. والأجنبي يعرف ذلك، ويعرف على أنّ الحرب التي شنها وسيشنها، هي عند الشعب العربي ضرب من ضروب التحدي، والشعب العربي يقابل التحدي بالتحدي، وصمته اليوم وفي الماضي القريب والبعيد أبلغ من كل كلام.

قالوا: إذاً فلنسلك الطريق الآخر. ويقصدون طريق السلام.

قلنا: السلام؟ بلى ولكن مع من؟ وكيف؟ أتريدون منا أن نرفع الأعلام البيضاء؟

قالوا: هذا لا يكفي.

قلنا: أيوجد برهان على إرادة السلام أبلغ من الواقع الذي نحن فيه، حيث لا توجد دولة عربية متفقة في الرأي مع دولة عربية أخرى؟

قالوا: لنا أصدقاء عندكم وأحباب. فكونوا منهم. وهذا هو البرهان الأبلغ على إرادة السلام لديكم.

قلنا لبعضنا: أفيوجد اليوم أحد يجرؤ على إغضاب الدول المتحدة الأميركية، وبيدها اليمنى صاروخ عابر للقارات، وباليسرى دولار يتلاعب بثروات الأمم؟

قالوا: كلمة واحدة نريدها منكم: أن يقول السوري إنه سوري وحسب. أن يقول العراقي إنه عراقي وحسب... وهكذا حتى نصل إلى العدد (٢١).

وعلّق بعضهم قائلاً: أَلَفظة شكلية تزعجهم إلى هذه الدرجة؟

قلنا: إنها تخيفهم حتى ولو فرغت من محتواها.

الغريب العجيب في مؤتمر السلام، أن المؤتمرين لا يعرفون عن أمره شيئاً، إلّا عندما يطلعونهم عليه في الوقت المناسب. وإذا لم

يعجبهم، أفهموهم بالقلم العريض. يختلف المؤتمرون مع كل مرحلة من مراحل المؤتمر على كل شأن من شؤونه، فيسلّمون أمرهم لمن بيده الأمر على وجه الكرة الأرضية. وهذا يحدّد لهم مكان الاجتماع، زمانه، ويضع ورقة العمل، وهي ورقة، العديد من بنودها إشكالي سيختلف المؤتمرون حوله. فثمة الرجوع إلى الحكم. وهذا يسوّف، يماطل، يؤجل، يكيل الوعود والوعود المضادة، يقول لكل فريق ما قد لا يقوله للآخر. وعلام العجلة؟ فالعجلة من الشيطان. وعندها تبدأ لقاءات الكواليس التي هي أخطر اللقاءات شأناً. إذ فيها تتمّ التسويات. كم سيطول مؤتمر السلام؟ لا أحد يدري في أي مرحلة من مراحله نحن؟ في الثالثة. ولكن مشكلات المرحلة الثانية لم يُحلّ أيٌّ منها، ولا مشكلات المرحلة الأولى. فالمراحل تتداخل. فلا تدري أين أنت منها. كل ما يطلبونه منك، هو ان تبيّن رأيك في الموضوع المطروح على بساط البحث. المهم على ما يبدو، هو أنهم أعلنوا في المرحلة الثالثة عن الموضوع الحقيقي لمؤتمرهم وهو: المياه ـ التنمية الاقتصادية ـ مراقبة التسلح. أما قرارات الأمم المتحدة (٢٤٢، ٣٣٨)، فورقة مساومة على ما يبدو. والواقع أنّ الموضوعات الثلاثة تخفي أكثر مما تظهر. فالمياه هي اقتسام مياه الشرق الأوسط مع الدولة الواحدة والخمسين من الدول المتحدة الأميركية، والتنمية فتح الأسواق العربية أمام الدولة نفسها. ومراقبة التسلح هي منع الدول العربية من التسلح. والحق أنّ كل ما يجري في المؤتمر ينطبق عليه قول المعري:

هذا كلام له خبيءٌ معناه ليس لنا عقول

والأهمّ من كل هذا، هو الطريقة التي استُخدمت لحل إشكالات المنطقة منذ بداية الأزمة وحتى اليوم. وتقوم على معالجة الإنسان كما تعالج المادة الصلبة، وذلك بالدلك الذي قد يضيفون إليه بعض المواد الملينة، حتى يصبح عجينة خام قابلة لأن تأخذ كل الأشكال. وعندها يفصح النظام العالمي الجديد عن إرادته فينا. إرادة

معروفة في خطوطها الكبرى. المجهول هو الطريق التي تؤدي إليها. والمفاجآت التي ستحدث أثناء الطريق والنتائج المترتبة على كل ذلك. الإرادة هي أن تستولي الدول المتحدة الأميركية على منطقة الشرق الأوسط برمّتها، وبخاصة على القسم العربي منها. ثم توكل أمرها إلى عناية الدولة الواحدة والخمسين المقيمة عندنا. الواضح أيضاً هو إجمالي الطرق التي استُخدمت لتحقيق هذه الإرادة، أو لتحويل الأمة الواحدة إلى أمم متصارعة على البقاء. حلم قديم لدى الغرب، بدأ مع معاهدة سايكس ـ بيكو (١٩١٦) وأخذ شكله الأشرس في الحرب الأهلية اللبنانية، حيث صارت الحرب في وقت من الأوقات، غاية بذاتها.

ويبدو أن الدول المتحدة الأميركية، وجدت أن الزمان قد تجاوز الطريق التي سلكها الغرب، فمن الضروري إبدالها بطرق تتناسب مع المرحلة التاريخية الراهنة. ولقد تمخضت العبقرية الأميركية عن سيناريو ذي أوقات، شهدنا منها حتى اليوم ثلاثة:

الوقت الأول، الأزمة، وهدفها خلق مناخ من المنازعات العربية ـ العربية، حول مشكلات طرحت بشكل يجعل حلها متعذراً، إنْ لم نقل ممتنعاً. فثمة توتر خانق هيمن على المنطقة العربية، وازداد مع تراكم الجيوش الأجنبية ومعداتها في منطقة الخليج، بحيث صارت الحرب الحلّ الوحيد.

الوقت الثاني، هو الحرب التي كانت صاعقة، سريعة، مهدمة للانسان وللعمران. ومعها تكوّن جو صار فيه الانسان لا يعنيه من الوجود سوى طريق السلامة.

الوقت الثالث، هو الذي نعيشه اليوم، أقصد مؤتمر السلام، حيث الحرب تتسلل إلى عظامك كالجراثيم، لا تتعرف إليها إلاَّ عندما تتحوّل إلى مرض عضال. قلت إنهم عالجونا بوسائل فيزيائية (دلك) وكيمائية (رش بالمواد الملينة) تحوّلنا اليوم من مادة خام

صلبة إلى مادة خام رخوة. كم ستستمر هذه الحرب غير المعلنة أو المعلن عنها باسم السلام؟ لا أدري. فقد تتبدل أجيال وتتبدل أنظمة حكم تُبدل معها معطيات المشكلات المطلوب حلها. المؤكد هو أن السيناريو يشكّل استراتيجية شاملة محكمة البنيان ومعقدة الوسائل، والسلاح واحد من هذه الوسائل وليس أهمها. وتلك هي الحرب التي قلت عنها إنها كلية..

والهزيمة هي أيضاً يجب أن تكون كلية، أقصد أنها تطال العربي أنّى وُجد، طولاً وعمقاً وعرضاً. وعندها يتحقق النظام العالمي الجديد بصورته الأكمل علينا. والواقع هو أنّا دخلنا نظام التبعيات هذا، قبل ان يُعلَن عنه. وأي استقلال يمكن أن يكون لشعب يطلب منهم الدواء لمرضاه، الحليب لأطفاله، الغذاء لفقرائه... والترف لأثريائه..!! السلاح للدفاع عن الذات، القروض أو الهبات لمقاومة التضخم النقدي والانهيار الاقتصادي، الكتاب لمثقفيه وطلابه؟ إن استقلالاً كهذا هو ضرب من ضروب التبعية، حُفظت فيه شكلاً كرامة الأمة.

إنّا نطلق على البشر الذين هزمونا في حرب الخليج، وفي غيرها من الحروب، اسم متقدمين (أجل متقدمون وليسوا تقدميين) وهم حقاً كذلك لأنهم يعيشون منذ الآن في القرن الواحد والعشرين. أما نحن الذين نعيش في ماضٍ لا أدري متى كان ولا كيف كان، ماضٍ مفترض يشدنا إلى الوراء، فنعوّض باسم التقدم المزعوم عن قصورنا الحضاري. تلك حقيقة علينا أن نواجهها بجرأة وإخلاص. وعندما نعيش، حكاماً ومثقفين وشعباً، القرن الواحد والعشرين، نتمكن من الصمود. والصمود هذا هو بداية النصر.

ليس من اليسير علينا أن ننتقل من نظام قبلي ألفناه منذ قرون، ومن عقل منكفىء على قيم وتقاليد هي خلاصة عصر الانحطاط، إلى قرن فيه ينفتح الناس كلهم بعضهم على البعض الآخر، عصر من سماته

المميّزة التخطيط العلمي المعمم والتقنين المعمم أيضاً للطاقات والثروات، بحيث لا تهدر منها ذرة واحدة. إلا أنّ هذا الانتقال ليس ممتنعاً. فالعقل يقسم عدلاً بين الناس كما يقول ديكارت. فالتفاوت أصله في الطرق المستخدمة للوصول الى هدف معيّن كما يضيف[١].

لقد بيّنتُ في السابق بعضاً من شروط هذا الانتقال، منها معرفة القرن الذي سنعيش فيه، انطلاقاً من سماته المميّزة. ومن ثمّ إعادة نظر جذرية تدريجية في تقاليد وأنماط من السلوك ترسخت فينا، فصرنا نعتقد أنها من طبيعتنا. الأهمّ هو أنّ الدخول في العصر، يستلزم أيضاً استراتيجية كاملة تتحقق تدريجياً وعلى مراحل، وتشمل مناحي الحياة العربية كافة، الثقافية منها والسياسية، الاقتصادية والعسكرية؛ فسياسة العصر في صورتها المتقدمة، تقوم على المجموعات البشرية الكبرى التي قد تتجاوز القومية بمعناها الضيق. ويقابلها في الدول المتخلفة تفتيت الكيانات الكبرى، وردّها أحياناً إلى مجموعات قبلية. ونحن العرب، نؤلّف واحدة من المجموعات البشرية الأكبر والأكثر تماسكاً، إذا قيست بمقياس البلدان المتخلّفة. وإنسان القرن الواحد والعشرين، ليس إنسان القرن العشرين من دون شك. وكذلك عقل هذا الانسان وثقافته، قيمه، رؤيته لذاته وللعالم.

قد يقال بأن وضع استراتيجية عربية شاملة لم تتوفر بعد له الشروط. فلنبدأ إذن بالقطر ونضع نصب أعيننا الهدف الأبعد ألا وهو الأمة. عندئذ نكون قد قدّمنا للوطن العربي نموذجاً للعمل المستقبلي يحتذيه الجميع.

ثمة دياليكتيك قديم قدم الانسان، دياليكتيك الماضي والمستقبل، كل حدّ من حدّيه يحاول أن يشدّ الآخر إليه ويلاشيه فيه. ولقد كان

---

(١) رسالة **الطريقة**، ترجمة جميل صليبا، منشورات الندوة اللبنانية لروائع اليونسكو.

الانسان في الماضي ـ وأقصد على الضبط قبل عصر الأنوار ـ يعتقد أنّ عصره الذهبي في الماضي ومع بداية تاريخه. فمفهوم التقدم الذي عمَّ العالم مع الثورة الصناعية، رجّح المستقبل على الماضي، وصار الانسان مستقبله، كما سبق وقلت، وعصره الذهبي في الآتي لا في الغابر. وهذا التوجه الجديد نسبياً، هو الذي يحافظ فعلاً على الماضي، إذ يجعل من انجازاته رصيداً لتقدم مستمر.

هذا الانتقال هو هداية حقيقية. وكل هداية هي تبديل في النظرة وبداية جديدة، معها يتجاوز الانسان الوضع الذي هو فيه، يردّه الى الماضي ويبدأ مستقبلاً جديداً كلّ الجدّة. أفيمكن للظروف المهينة التي رافقت أزمة الخليج، أن توقظنا، شعباً وحكومات ومثقفين الى مستقبلنا؟ ربّما. على أية حال، فإنّ الانتقال ـ الهداية المطلوب تحقيقه، يبدأ في صمت القلب، في أعماق اللاّشعور بصورة عفوية. فإذا كنت تعتقد أن الشعب في الأمة أو في القطر، ليس بعد ناضجاً لمثل هذا الفعل التأسيسي الجديد، فابدأ أنت، قدِّمْ نموذجاً يُحتذى. وتلك حكمة الآية: (لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم).

٩

وماذا بعد؟...

لقد كانت ردود الفعل الأولى على هزيمة الخليج يائسة الى حدّ الانفجار، متشائمة الى حدّ التمزق الداخلي. وهذا الشعور بالإحباط الكامل، الذي هو ضرب من ضروب تقريع الذات الجماعية والفردية، والذي ما يزال يتردد حتى اليوم في كلام المثقفين، يدلّ، إنْ دلّ، على أنّ المثقف العربي يشعر بالمسؤولية، ويريد في الوقت نفسه أن يلقيها على الغير: «أنا بريء من دم هذا الصديق».

وهذا واضح في بعضٍ من عناوين المقالات التي قرأت، وبعد أوضح في المضمون.

«نحن الآن وثيقة تاريخية»، سميح القاسم(١).

«كم أنت أبله أيها العظيم»، أنسي الحاج(٢).

«الأرض خراب والرجال جوف والمشاعل مطفأة»، رياض نجيب الريّس(٣).

---

(١) مجلة الناقد، العدد ٣٠، كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠، ص ٤ ـ ٥.

(٢) مجلة الناقد، العدد ٣٤، نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ١٣ ـ ١٥

(٣) المصدر نفسه، ص ٤ ـ ٥.

«مرثية وطن» كمال أبو ديب[٤].

«اليقظة بين أربعة جدران»، محمد الأسعد[٥].

فالنهضة أخفقت في نظر بعضهم، صبري حافظ - الحرب ومأساوية علاقة المثقف العربي بالسلطة[٦] -. واليقظة وئدت، محمد الأسعد[٧]. والانسان فرغ من الداخل، رياض نجيب الريّس[٨].

إلا أنّ الذي يتقمّص المأساة مع كل خلجة من خلجات كيانه، ويتحسّس في أعضاء جسده كذبنا، تناقضاتنا، انفصاماتنا، وأيضاً الطعنات التي تُسَدَّد الى صدورنا، هو سميح القاسم. ففي ثلاث مقطوعات نثرية هي من عيون شعره[٩]، يرسم لوحة أخّاذة للإهانات التي لحقت بنا، أو بالأحرى ألحقناها بذاتنا، على درجة من الصدق والقوة، بحيث تلاحقك أشهراً بعد أن تقرأها، وتجبرك على أن تعيش ما عاش:

> «نقول الجهاد، نقول الفداء، نقول الدين، نقول الوطن... بوعي تام، بغيبوبة تامة»[١٠].

وكأني بالشاعر الفلسطيني يقول:

أهـذه هي حصيلة عمرٍ من نضال شعب، أن نُسلِّمَ للأعداء

---

(٤) مجلة **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ١٥ - ١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٠ - ٣١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢١ - ٢٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٠ - ٣١.

(٨) المصدر نفسه، العدد ٣٤، ص ٤ - ٥.

(٩) سميح القاسم: «نحن الآن وثيقة تاريخية». **الناقد**، العدد ٣٠، كانون الأول (ديسمبر ١٩٩٠)، ص ٤ - ٥؛ «مقالة صغيرة في القول الكبير». **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٢٦ - ٢٧، و«مع هذا ورغم ذلك»، **الناقد**، العدد ٣٨، شباط/فبراير ١٩٩١. ص ٧.

(١٠) «مقالة صغيرة في القول الكبير» **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١. ص ٢٦ - ٢٧.

يلتهمـوننـا قطعـةً إثر قطعة. وإني لأتساءل، أهي مقالة سميح القاسم أم مقالة كل فلسطيني؟ في تلك الأيام التعيسة تجَمَّع يأس العربي في الفلسطيني، حيث صار أضعاف ما هو عليه.

ويكتب كمال أبو ديب بعد الهزيمة رثاءً، هو عصارة أساه على وطن هو ذاتنا؛ تصرفنا وكأنّا نسهم في الإجهاز عليه. ولكن الرثاء ليس هنـا للرثـاء. فكمـال أبو ديب لا ينسى أنّ حلبة الصراع ما تزال مفتوحة في الهزيمة وبعدها:

«غير أنّ مراثينا لن تكون مراثي العجزة اللاجئين الى فضاء الكلام... بل هي المراثي التي تُشعل في صدرك الذبيح لهفة الصراع من أجل أيامك القادمة»[11].

وللعراق صوته، لم أسمع منه إلا ما أسمعتنا اياه مجلة (الناقد) بعنوان «الأرض المرّة».

«أرى الدم مختلطاً برماد الكتب والسياط على رقاب آبائي
بالمعاول يُبكر الرجال لدفن يومهم
يلح عليَّ سؤال: أين ندفن الأرض؟
أحب الغيوم يتداولها الربيع، غير أنّ الزهور معدنية لها نكهة السياط»[12].

إنـه صوت من القـاع يسـائل عن دنيا البشر، أين صارت، وهل ما زالت الأرض تدور وعليها أحياء يحبون ويكرهون... وينتجون؟ هو جرح بسعة الأرض، أرض العرب، ويفيض؛ فيه دُفنت آمالنا ومعها قلوب أبنائنا وأجدادنا. وحدهما باقيان: الوحش الذي سَدَّدَ

(١١) كمـال أبـو ديب، «عـالم هو غابة الأقوياء. مرثية وطن»، مجلة الناقد، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ١٥ ـ ١٧.

(١٢) باسـم المـرعـبـي، «الأرض المـرّة»، مجـلة النـاقـد، العـدد ٤٢، كانـون الأول/ديسمبر ١٩٩١، ص ٤ ـ ٥.

الضربة، والآخر الذي استثارها. وحدهما الشاعران، العراقي (باسم المرعبي) والفلسطيني (سميح القاسم) تقمّصا جرح الشعب، عاشاه، إدانة لكن من أسهمَ في الكارثة.

الإدانة مرحلة. كذلك الرثاء، الاتهام، تجريح الذات، وأيضاً تاريخ الهزائم... وماذا بعد؟

تعلم من الشعب، يمتصّ الكارثة وهو يردد: لا حول ولا... ويعود الى العمل المنتج، وحده يحفظ للأمة الحدَّ الأدنى من تماسك يصونها من الانهيار والتلاشي. يعمل وينتظر. العمل وحده يفتح له الطريق الى الانتصار على اليأس. فالمعركة متواصلة، أيّاً كان الشكل الذي تأخذ...

... وهي اليوم الحوار. ولكنه غير متكافىء الأطراف، تارة على المسرح وطوراً في الكواليس، حيث يملون عليك إرادتهم. ويقولون مع ذلك ـ وعلينا أن نقول ـ إنه حوار ديموقراطي جداً، حقوق الإنسان فيه مصونة هي والشرعية الدولية.

وماذا بعد؟

لقد وقع السياسي، مرغماً، في فخ مؤتمر السلام. ولن ينقذه وينقذ الشعب من الفخ سوى عملنا المنتج. لا تقل: هو المسؤول. قل أنا أيضاً مسؤول. فعليك أنت ان تعوّض بالعمل المنتج عن مسؤوليتك أياً كانت درجتها.

لمَ صارت اليابان، بعد هيروشيما ونكزاكي بأقل من نصف قرن، طليعة بين الدول المصنعة؟ وأيضاً بعد أقل من نصف قرن على خراب مدنها وسحق جيوشها صارت المانيا القوة المهيمنة على أوروبا اقتصادياً وثقافياً؟ لمَ صارت كوريا الجنوبية بعد التخلف، الدولة التي ضربت الرقم القياسي بالنمو؟ لأن هذه الدول قررت أن تكون كذلك. واستخدمت لتحقيق هذا الهدف وسائل شتى، في

طليعتها وسيلتان متكاملتان: الإفادة من كل ذرّة من ذرّات طاقاتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى اعتماد منهج التخطيط العلمي.

إنّ في الانسان فائضاً عن ذاته، هو رصيد قبلي منحه إياه مانح الوجود. وهذا الرصيد هو الذي يشكل عنده فسحة العمل المنتج، حيث يراكم أرصدته ويوظفها. إن الدول المتقدمة تقدمت، لأنها عرفت كيف تفيد من هذا الرصيد، من أرصدتها الأخرى ومن أرصدتنا نحن أبناء العالم المتخلف. في حين أنّا نحن وغيرنا من المتخلّفين، عطّلناه، خنقناه من أجل أمور ثانوية وأحياناً تافهة صارت بالنسبة إلينا ذريعة للهرب من مواجهة الواقع. فباسم الحفاظ على سلامة اللغة، كما سجلها (لسان العرب) حكمنا على البحوث في العلوم الإنسانية بالعقم. وباسم الحفاظ على سلامة العقيدة الايديولوجية ـ تقدمية كانت أم سلفية، حكمنا بالشلل على الفكر. وباسم تعليق الحريات حفاظاً على سلامة المجتمع، حكمنا بالموت على كل مبادهة فردية. هذا العمق يقابله تبذير لا حد له في الثروات التي وظفوا الشطر الأعظم منها في مشروعات الغرب، ولفائدة غرب هو عدونا.

لا تقل: هم.

قل: أنا، فما الذي صنعته بالوزنات التي أُعطيت لي؟

هل وظفتُها؟ هل ثمّرتُها؟ أم هل سفحتُها على أقدام الخنازير تدوسها بأرجلها؟

لا تقل: هناك الفرد حرّ. فالفرد المنتج هو الذي جعل دولاً من دول هذا العالم حرة، منتجة، متقدمة. إن الذي شق الطريق في البداية للحضارة الحديثة العلمية والمصنّعة، فردٌ اسمه رينه ديكارت عندما رفض مبدأ السلطة ومعه الماضي ليحتكم إلى العقل.

قبله بقرون قال شاعرنا:

كذب الظن لا إمامَ سوى العقل ...

ولكنّـا نحن أحكمنـا إغـلاق آذاننا، كي لا نسمع صوت المعرّي ينـاديـنـا. أهو الحاكم الذي أعطى في الماضي ويعطي في الحاضر الحرية لشعبه؟ أم ان الشعب هو الذي يحرر الحاكم نفسه من تسلّطه؟ إنّ عصر الأنوار كان كذلك، لأنه حطم الأصنام، فلا تخلقْ أصناماً جديدة. حريتُكَ فيك وهي حقيقتك. فلا تبعْ ذاتك بالثمن الرخيص.

وبعد ماذا؟

بعـد حرب الخليج وأكثر من أي يوم مضى، القرار بيدك. فاتخذه وواصلْ سيرك في طريق العقل والحرية، ولسوف ترى انّ الناس سيتبعونك عاجلاً أم آجلاً...

١٠

الثقافة رسالة ...

ليست الثقافة درجة جامعية أو مدرسية ولا مجموعة معلومات موسوعية، ليست لغة أو لغات نجيدها، ليست كتاباً نقرأ أو اختصاصاً نمارس... قد يكون كل هذا أو بعضه من مستلزماتها. أما هي فشيء آخر. إنها فعل تكويني. وبالمقابل فإنّ كل فعلٍ يسهم في تكوين الإنسان، فرداً أو جماعة، هو ثقافة. فالسينما، الموسيقى، الفنون التشكيلية... وأيضاً العمل السياسي، البيانات الأساسية التي تنشرها الدولة، الفعالية الاقتصادية، التخطيط... وكل عمل أو جهد واعٍ يقوم به الانسان، هو ثقافة. إلّا أنّا نطلق اسم ثقافة اعتيادياً على الفعالية الفكرية والأدبية والفنية في أي من مجالات وجودنا. الثقافة بالمعنى الأدق للكلمة، هي فعل يحيط به الانسان بعالمه ـ ومعه تراثه ـ ويعيد تأليف الكل بشكل يجعل منه مستقبلاً. الثقافة، بالنسبة إلينا نحن العرب رهان على هوية، على حقيقة، على وجود. والمثقف هو الذي يضع هذا الرهان في نقطة المحور من حياته، بحيث يسخّر كل عمل يقوم به كي يربحه.

تلك هي الثقافة بذاتها ولذاتها.

تلك كانت ثقافتنا يوم كنا.

واليوم، ماذا عن اليوم؟

قلت: كانت حرب الخليج وما سبقها (الأزمة) وما لحق بها (مؤتمر السلام)، بمثابة طعنة في أعماق الجسد العربي أضعفت قدرته على الصمود، ضاعفت مشكلاته، كشفت عن إشكالاته، وجعلتها أكثر جذرية. المشكلات والإشكالات هذه تتركز حول ثلاثة محاور:

١ ـ تسارع تفكك الفسحة الثقافية العربية التي كانت ماتزال موحّدة حتى الحرب العالمية الثانية. فأبطال الإستقلال في كل قطر من أقطارنا، جعلوا من القطر غاية بذاته، وهم يعلنون أن استقلالهم هو بداية الطريق إلى الوحدة. وصار هذا الموقف تقليداً يسير على هديه ويعمقه خلفاؤهم سنة يجذرونها. ويستدعي الإستقلال إحكام إغلاق الحدود عند حاكمنا، وبالتالي بداية نشوء الدولة القطرية على حساب الدولة القومية. ويزيد من عزلة الدولة القطرية، استخدامهم اللغة العامية المحلية في السينما، الأغاني الشعبية، بعض البرامج التلفزيونية وبعض النصوص الأدبية.

٢ ـ الثقافة المدرسية بكل درجاتها التي يفصلها في كل قطر عن القطر الآخر، الايديولوجيا الرسمية التي بالمناسبة تباعد بين المدرسة والثقافة وأيضاً بين المدرسة والحياة، بحيث تصير المدرسة هذه مكاناً عازلاً ومعزولاً، فيه يتدرب التلاميذ والطلاب على الأمانة للحاكم.

٣ ـ عجز المثقف عن استعادة استقلاله وحريته في مقابل حاكم يريده بوقاً له. والحكم في الأقطار العربية يتأرجح بين حدّين أقصيين. إما أن يكون استئثارياً يُكره المواطن على أن يتقمص الصورة التي يريدها له. وإما أن يكون حكماً هشاً. فالحريات فوضى، والحرية الفردية هي للكسب المشروع وغير المشروع. النموذج الأول يمثله العراق، والنموذج الثاني يمثله لبنان. والأسوأ هو أن يوجد النموذجان في بلد واحد.

ولقد صارت التربية الحزبية وفق النموذج الستاليني سرطاناً شلَّ كل حركة ثقافية في المدرسة وأيضاً في المنظمات الطلابية والمهنية وغيرها. فلا عجب إذا كان مستوى التربية في المدرسة العربية بكل درجاتها سريع التدهور، انخفاض مستواه ينعكس على الثقافة نفسها، لأن القارىء والكاتب من صنع هذه المدرسة. ولا يسلم من هذا الطاعون إلَّا «من عَصَمَ رَبُّكَ» وهؤلاء هم أمل النهضة الثانية العتيدة.

أضف إلى كل ما تقدم من جهة ، الصراع الحاد بين القديم والحديث الذي يضعف، إلى حد الشلل أحياناً قدرة المثقف على المبادهة. ومن جهةٍ أخرى الاشتراكية البيروقراطية التي عمّمت الإتكالية والببغائية، وجعلت من الكتابة سلعة تباع، ثمنها الأرفع عند الدول النفطية. بهذا فقدت الثقافة بعدها الأساسي الذي هو المجانية. فالكاتب موظف بأجر يزيد وينقص تبعاً لحاجة الشاري. والمرض هذا بَعْدُ أدهى، أقصد أن هذا الوضع ـ ومنه بالدرجة الأولى التربية الحزبية ـ فرَّغ الشاب والشابة من كل رغبةٍ في المعرفة، فهما فريسة السوق الاستهلاكية وامتداداتها في السينما والإعلان، تعدهما ـ قل: تربيهما ـ للمجتمع الإستهلاكي حيث يستهلك الترف المزيف عقول الشباب والشابات، أجسادهم وأرواحهم.

هذان النموذجان ـ التربية الحزبية والتربية الإستهلاكية ـ هما البديل عن تربية عربية، جعلتنا يوماً طليعة في الابداع الأدبي والشعري، العلمي والتقني.

وها هي حرب الخليج تجهز، بعد سقوط الإتحاد السوفياتي وبسبب هذا السقوط، على البقية الباقية من أريحية الشباب والشابات الذين صاروا يرون في الأهداف التي عاشت من أجلها أجيال الخمسينات «باطل الأباطيل وقبض الريح». الحقيقة الوحيدة لدى

أجيـال اليـوم، الواقـع الوحيد حقاً .. اللذة الجسدية الرخيصة القيمة والثمن.

هل تبخّرَ كل أمل لنا بنهضة ثانية؟

كثيرون هم الذين صاروا يرون بعد ما أحدثته حرب الخليج وذيولها من تفكك متسارع في جسد الأمة العربية، أن الإنكفاء على القطر هو الأسلم عاقبة. هؤلاء لا يعلنون ذلك بأقوالهم. ولكنْ يتصرفون وكأن هذا الحل هو الوحيد الأوحد. كثيرون أُخَر اخترعوا اسطورة (حرق المراحل) أي العمل الثقافي المكثف الذي سيضعنا بسرعة، نحن وثقافتنا، في مستوى الأمم المتقدمة. هذا قد يكون ممكناً في حقل اكتساب العلوم التي صارت كلاسيكية والتكنولوجيا الجاهزة. أما في الطرق التي تمكّنك من الإسهام في حل مشكلات علمية وتقنية معلقة، أو من الإسهام في الإبداع العلمي والتقني، فعليكَ أن تسلك الطريق بتؤدة من ألفها إلى يائها.

قلت: أيمكننـا أن نتجـاوز يأساً يكاد يصير بنيوياً لدى شطر لا يستهان به من المثقفين العرب؟ وهذا شرط مسبق لكل عمل منتج علمياً كان أم أدبياً.

بـلـى. -

الشعب لم ييـأس. فقد عاد إلى العمل المنتج، طبعاً ضمن حدود قدرتـه على الإنتـاج. والعمل المنتج يفترض حدّاً أدنى من الثقة بالذات وبالجماعة التي نعِدّ لها الإنتاج.

إن الثقافة، فكرية كانت أم أدبية أم فنية، تفترض الزمان بعداً من أبعـادهـا، كما تفترض تراكماً ثقافياً يسبقها ويمهد لها. إذ إنها عملية انضاج بطيء وتكوّن فردي وجماعي في تجاوب مستمر. إن الإبداع ليس وحياً ولا فكرة تهبط على الإنسان من علٍ، بل هو جهد تمثل مستمر قد يستلزم حياة الإنسان كلها كي يعطي أُكُلَهُ.

لقد كشفت حرب الخليج عن أمراضنا المزمنة، ضاعفتها وهي تجبرنا اليوم على مواجهتها. ولقد ذكرتُ بعضاً من هذه الأمراض بشكل متفرق؛ عليَّ الآن ان أجمعها في خلاصة سريعة تلمّ بأغلبها:

١ ـ قصر النظر، ضيق الأفق وتقلص الرؤية أحياناً إلى حدّها الأدنى.

٢ ـ الإنسان أدنى قيمة وثمناً من الأشياء.

٣ ـ سيطرة عقلية القطيع على العدد الأكبر من المثقفين والسياسيين أنفسهم. فهم يسلكون الطريق التي يشقها الحاكم للجمهور في غياب كل فكر نقدي وكل قناعة عقلية. وهذا يعني ضعف الشخصية على الصعيد الفكري.

٤ ـ سيطرة الأسطورة على العقل.

٥ ـ شراسة المتخلّفين بعضهم على البعض الآخر.

٦ ـ عقدة الأجنبي. فنحن نشتمه وفي الوقت عينه نفتح له أبواب ديارنا على مصاريعها. أوَ كان يمكن للأجنبي أن يحتل ديارنا لو لم نمكّنه نحن من ذلك؟ إن تاريخاً طويلاً من الصراع مع الأجنبي ومن المساومة على حقوقنا، ـ قل: من المحاكاة والتبعية ـ جعلت من هذا الأجنبي بعداً من أبعاد وجودنا.

المرض ـ الأم الذي بدأ يدبّ في الجسد العربي منذ سنوات عديدة وفاقمته حرب الخليج، هو انفراط المجتمع العربي. وهذا الانفراط هو الذي حرّض لاشعورياً قيام الحكومات شديدة المركزية، ساعدها الأيمن الأجهزة السرية. وفي مجتمع كهذا فقير العقل والمال، لا بد أن تصير الرشوة، الغش، التزوير، التهريب... من الأمور الرائجة وحتى الشرعية. والسؤال المطروح بإلحاح هنا هو: ما السبيل لإعادة التماسك الطبيعي إلى المجتمع؟

قل ولا تتردد: الثقافة.

قال: أوَ يمكن لتأليف كتاب أو القيام ببحث فكري وبنشاطات أخرى فنية من هذا النوع، أن تشفي من مرض عضال كمرض الإنفراط الإجتماعي؟

قلتُ: بلى. فنهضتنا الأولى التي نقلتنا من الشتات العثماني إلى السير في طريق الوحدة، كانت ثقافية ـ شعبية شأنها شأن وحدة الأمة العربية طوال قرون، الثقافة يغذيها ويحافظ عليها الشعب في الصميم من كيانه، رغم التجزئة، تبدل الحكومات السريع والحروب الأهلية. أوَلم نقل إن الثقافة الحقة تكوينية، تعطي للإنسان، فرداً وجماعة، صورة تصبح هويته وتوجّه لاشعورياً أعماله؟ لا تثق بالوحدة السياسية، فقد برهنت الأحداث طوال ثلاثين عاماً ونيف على أنها حصيلة مساومات على مصالح، تتلاشى عندما يرى أحد الأطراف أن مصالحه صارت مهددة. فالسياسة هنا ملحقة بالثقافة. قل بالأحرى إن للثقافة بعداً سياسياً وإنْ على الأرضية الثقافية، أي على أرضية تكوين الإنسان تبنى السياسة والإقتصاد. ولا تعجب إذا قلت لك إن الأمة العربية مريضة اليوم في المثقف الذي صار يشكّ في قدرته على تكوين الإنسان. وشكّه هذا هو الذي دفعه إلى الإتجار بكتابته، وأيضاً إلى إتهام الحاكم كي يرفع المسؤولية عنه ويلصقها بالآخر.

أنا لا أنسى أن النهضة اليوم أصعب بكثير مما كانت عليه في القرن التاسع عشر، من جهة لأن الثورة الصناعية التي تمّت نهضتنا الأولى في إطارها، بسيطة ومبسطة رغم تعقيداتها، بالقياس إلى الثورة العلمية ـ التقنية التي ستبنى في إطارها نهضتنا الثانية؛ ومن جهة أخرى لأن الدولة العثمانية التي واجهناها كانت منهارة. أما الدول المتقدمة التي نواجهها اليوم وعلينا أن نباعد بيننا وبينها كي نتقدم، متماسكة وتعمل بشكل منهجي، كما سبق وقلت.

أجل نهضتنا الثانية صعبة جداً. ولكنها ليست ممتنعة، شريطة أن نصمّم على النهوض وندفع الثمن.

المثقف هو الذي يقول.

إذ يرى يقول، ولا يمكنه إلاَّ أن يقول إذا كان حقاً مثقفاً. وتقاس قيمة قوله بسعة وعمق فسحة رؤيته التي قد تكونُ بسعة العالم الذي يعيش فيه.

القول أن تقول ما هو كما هو (أفلاطون) أو أن تقول الواقع الذي له ملء الواقعية(١). هذا القول يتجاوز دفعة واحدة الهزيمة والقطيعة والشرذمة، الحرمان والفقر والخوف وبقية العقد. إنه نصر على التخلف والتجزئة، لأنه يصدر عن الرصيد الأولي أو القبلي للإنسان، أقصد فائض الإنسان عن ذاته وعن عالمه.

يوماً كان لنا هذا القول، فكنّا في الثقافة أكابرها، وفي الدنيا سادتها. ثم هجرنا هذا القول فصار شعرنا محاكاة، وكلامنا شعارات فضفاضة، فيه «نقول كثيراً ونعني قليلاً»(٢). وقول الفقير فقير، يزيده فقراً. لمَ هجرنا القول وصار إلى غيرنا؟ لن نستطيع الإجابة على هذا السؤال إلاَّ عندما نستعيد القدرة على القول.

قال: متى وكيف نستعيدها؟

قلت: في الآن إذا قررت وقررت أن تدفع الثمن.

قال: الظرف غير ملائم.

قلت: القول يخلق ظرفه، كما أن المضمون يستدعي صورته. قرّرْ أن تسلك الطريق التي تتناسب وقرارك، وانتظر. فعصر الأنوار الذي

---

(١) تعريف الفلسفة في حوار السفسطائي وغيره من محاورات افلاطون.

(٢) سميح القاسم، «مقالة صغيرة في القول الكبير»، مجلة **الناقد**، العدد ٣٦، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٢٦ ـ ٢٧.

وُضعت فيه أسس الحضارة الحديثة، بدأ في القرن الخامس عشر مع بداية نهضتهم.

المتخلف نزق، يريد النتائج لتوّه. يرفض أن يرى واقعه، مع أنه يصفعه كل يوم صباحاً ومساء. يطلب إلى الدولة أن تعطيه حرية هي فيه ويساوم عليها. إن الحرية لا تأتيك على طبق من ذهب يبعث به إليك بقرار سياسي، حاكم يزدريك.

إن دور المثقف في بلد متخلف ضعف وربما أضعاف ما هو عليه في بلد متقدم. فهذا يواصل تاريخاً متواصل الحلقات، سيان سبقه أو واكبه أو لحق به. أما أنت فعليك أن تتجاوز قطيعة عن الحضارة العالمية، عمرها قرون كي تبدع تاريخاً جديداً يربط في المستقبل حاضرك بماضيك.

مرة بعد مرات أقول إن هذا التجاوز يحصل بقرار قد لا يشعر به صاحبه عند اتخاذه. فعندما عاد الطهطاوي من باريس ووضع كتابه المعروف (تخليص الإبريز في تلخيص باريس ـ ١٨٣١)، لم يخطر بباله أن هذا الكتاب هو بداية حوار الندّ للندّ مع غرب كان ومايزال يعتقد أنه أعلى مستوى منّا بكثير. إلّا أن صاحبه تجاوز ماضياً من التبعية والفقر الروحي ليضع ذاته في مستوى حضارة كانت يومها الأرفع بين حضارات العالم. وتتوالى الشخصيات والمؤلفات، تواصل الطريق التي شقها الطهطاوي. فثمة علي مبارك والأفغاني، فرح أنطون والشيخ محمد عبده، شبلي الشميّل وبطرس البستاني وغيرهم من الذين اكتشفوا مشكلاتنا الكبرى إذ ذاك. وتبدأ المعركة مع بريطانيا يقودها عرابي (١٨٨١)، ثم مع العثمانيين في بداية القرن العشرين. فثمة اكتشاف العروبة... هذه المعارك الفكرية والعسكرية، كان لها أبطالها وشهداؤها (مثلاً شهداء ٦ أيار) أو (شهداء معارك المغفور له فيصل على الطريق من

الحجاز إلى دمشق الشام). ويكتشف جرجي زيدان في نهاية القرن التاسع عشر أنّا في وضع نهضوي...

فالتخلف، وإن كان مرضاً عضالاً، ليس من كيان الإنسان العقلي ـ الروحي. إنــه، كما سبق وقلت، قصور حضاري، عليك أن تقرر تجاوزه مرة ولكل مرة. إذن الحاسم بالنتيجة هو قرارك وصمودك على مستوى هذا القرار. والوضع العربي الراهن، استثنائي ولو طال دهراً.

النهضة رؤية وفعل:

رؤية مستقبل نجعله حاضراً إذ نقوله.

فعل يحقق هذه الرؤية.

السياسي ـ الحاكم هو خارج الرؤية ـ الفعل التي تحققها أنت في داخلك وتستمــر قائماً على أرضها أياً كان الظرف، إذا كنت حقاً قانعاً بعملك ومخلصاً له. فصلابة موقفك هي التي تجبر الحاكم يوماً على أن يفتح أذنيه ليسمعك، الثقافة ليست كتاباً، كما سبق وقلت، ليست نزوة عاطفية ولا موقفاً رومانتيكياً تباهي به. إنها حياة كاملة تتكثف وتتجمع في فعل واحد له قيمة منعطف تاريخي. والفعل هذا يسبقه ويصحبه ويتبعه قرار. وهذا القرار ليس سياسياً ولا اقتصادياً، ليس ثقافياً ولا اجتماعياً، إنه كل هذا وشيء آخر نعرفه بنتــائجه القريبة والبعيدة، البعيدة أكثر من القريبة. إنك تخدع نفسك إذ تنتظر حلاً ما من اجتماع قياداتنا القطرية والقومية. فهي في أحسن الحالات عديمة الجدوى، وفي الأسوأ لمزيد من التخلف. إنها تسويات لا تسوي شيئاً. وهي دوماً قابلة للتبدل والنقض. أما قرار النهضــة، فكــلّي غير قابل للرجوع عنه ولا لمناقشته. إذ إنك عنــدمــا تتخذه، تلغي الطريق القديمة مرة ولكل مرة، كما أحرق طارق بن زياد مراكبه عندما وطئت قدمه أرض الأندلس، وشقّ بذلك للعروبة فسحة جديدة. واعلمْ أنك لن تكون وحدك، لأنك بقرارك

تلبي نداء أمة تنتظرك منذ قرون. ولهذا أقول عن هذا القرار إنه فردي وجماعي في الوقت عينه.

قد يكون الصخب الإعلامي من مستلزمات العمل السياسي في يوم من الأيام. إلاَّ أن تواتره ليدلُّ على أن الجماعة تشكو من خلل ما تخفيه ـ عن ذاتها ـ وراء سيل من الكلام الفضفاض. على أية حال فإن الإعلام هو حيث التباعد الأكبر بين السياسة والثقافة. أما العمل الثقافي الحاسم، فينمو بمعزل عن الإعلام وحتى عن الجماعة كلها في وجهها السطحي الذي يعبّر عنه الإعلام. وتحضرني هنا طُرفة تروى عن بيكاسو. يقال إن سيدة من عُليَة القوم أتته طالبة إليه أن يرسم لها صورة، وعندما رأتها بعد ثلاثة أشهر قالت له: هذه الصورة لا تشبهني. فقال لها على الفور: ستصيرين مثلها؛ وتلك حال المثقف الذي قرر أن يكون مخلصاً حتى النهاية لثقافته أياً كان الثمن الذي سيدفعه: يصير مثلها وتصير مثله.

عندما تصبح الثقافة رسالة. وأية رسالة أعظم من أن يسهم الإنسان في إعادة تكوين مجتمعه وإنسان هذا المجتمع. تلك كانت رسالة الأنبياء.

وفي بداية كل منعطف تاريخي كبير رسالة ما، هي التي تعطيه معناه، ومنعطفنا الكبير اليوم هو تجاوز الهزائم والتخلف وأمراض التخلف والهزائم، من أجل بناء مجتمع وحدوي معافى، يعيدنا إلى المستوى اللائق بأمة عظيمة.

كل ذلك يتم في صمت القلب.

دمشق ـ أواخر كانون الثاني ـ ١٩٩٢

فهرس عام